

٤- ما بين بدء الوحي إلى الهجرة المباركة

إشراق شمس النبوة

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: «أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «ما أنا بقاريء». قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني» فقال: اقرأ. قلت: «ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني»، فقال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني» فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق: ١-٣]، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «زملوني، زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى -ابن عم خديجة- وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، ياليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذا يخرجك قومك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَوْ تُخْرِجِي هُمْ؟» قال: نعم؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي ^(١).

(١) رواه البخاري (١/٣٠، ٣١) بدء الوحي، وفي التفسير، وفي التعبير، ومسلم (٢/١٩٧-٢٠٤) الإيوان.

فهذه قصة بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، والله عزَّ وجلَّ إذا أراد شيئاً هياً أسبابه حتى يظهر شيئاً فشيئاً، فأول ذلك الرؤيا الصادقة وهي جزء من أجزاء النبوة بالنسبة للمؤمن، وحبب إليه ﷺ الخلاء وهو الابتعاد عن الخلائق، وذلك من أجل التعبد والخلوة بالله عزَّ وجلَّ، وكيف لا تتعلق نفس النبي محمد ﷺ بالعبادة وتحبب إليها وهو النبي الخاتم الذي يعدّه الله عزَّ وجلَّ لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، والوصول إلى المراتب العظيمة والارتفاع إلى المنازل العالية لا يكون بيسرٍ وسهولة، و لكن بمُعانة ومشقة، وهذا ما يشير إليه ضم جبريل عَزَّوَجَلَّ لرسولنا ﷺ حتى بلغ منه الجهد، وإن كانت الدعوة تحتاج إلى جهد ومشقة ومكابدة، فتلقي الوحي كذلك كان غالبه بجهد ومشقة ومكابدة، كما أشار إليه قوله ﷺ وقد سئل كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ فيُفصمُ عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول».

قالت عائشة رضي الله عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه؛ وإن جبينه ليتفصدُ عرقاً»^(١).

وإن كان الدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ يُعانون مشاق الدعوة، فإن الرسل الكرام لعظيم أجرهم وجليل قدرهم يجمعون بين معاناة الدعوة والتلقي عن الله عزَّ وجلَّ، وهم كما قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء»^(٢).

وفي الحديث من الصوائد والآثار الإيمانية:

١ - فضل اعتزال أهل السوء والمعاصي، وبركة الخلوة من أجل العبادة والتقرب إلى الله عزَّ وجلَّ ودل عليها كذلك قول الله عزَّ وجلَّ حاكياً عن إبراهيم عَزَّوَجَلَّ:

(١) رواه البخاري (١/٢٦، ٢٥) بدء الوحي .

(٢) رواه الترمذي (٩/٢٤٣) الزهد وقال: هذا حديث صحيح . وحسنه الألباني في «تحقيق المشكاة».

﴿وَأَعَزَّلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۗ فَلَمَّا أَعَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۗ وَكَلَّا جَعَلْنَا نِيَّتًا﴾

[تيسير: ٤٨-٤٩].

٢- فضل الرؤيا الصالحة التي يراها المؤمن أو ترى له، فقد كانت الرؤيا الصالحة بداية إشراق شمس النبوة، فما زال النور يتسع حتى أشرقت شمس النبوة.

٣- فضل أمنا خديجة عليها السلام وكيف أنها مثال للزوجة الصالحة التي تعين زوجها على العبادة والطاعة، وكيف تستقبل الزوجة زوجها إذا عاد مهموماً، وكيف تسعى لتفريج هممه وتنفيس كربه، فخففت عنه أولاً بأن من اتصف بالصفات الفاضلة لا يمكن أن يخزيه الله بل لا بد أن يرفعه وأن يكرمه^(١)، ثم لم تقتصر عليها السلام على ذلك حتى ذهبت به إلى ورقة بن نوفل فبشره بالنبوة، وكيف لا تكون خديجة عليها السلام كذلك وقد اصطفاها الله عزَّ وجلَّ زوجة لخاتم أنبيائه وإمام رسله في الدنيا والآخرة.

وقد ورد في فضلها عليها السلام أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «هذه خديجة أقرئها السلام من ربها، وأمره أن يبشرها ببيت في الجنة من قصبٍ لا صخب فيه ولا نَصَبٍ»^(٢).

(١) قال ابن القيم رحمته الله: استدلت بما فيه من الصفات الفاضلة، والأخلاق والشيم، على أن من كان كذلك لا يخزي أبداً، فعلمت بكمال عقلها وفطرتها أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والشيم الشريفة تناسب أشكائها من كرامة الله وتأييده وإحسانه، ولا تناسب الخزي والخذلان، وإنما يناسبه أصدادها فمن ركبها الله على أحسن الصفات وأحسن الأخلاق والأعمال إنما يليق به كرامته وإتمام نعمته عليه، ومن ركبها على أقيح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال إنما يليق بما يناسبها، وبهذا العقل والصديقية استحققت أن يرسل إليها ربها السلام منه مع رسوله جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم «زاد المعاد» (١٣/١٩) ط. الرسالة.

(٢) رواه البخاري (١٦٦/٧) مناقب الأنصار، ومسلم (١٩٩/١٥) الفضائل. والقصب: هو قصب اللؤلؤ المجوف. والصخب: الصوت المختلط المرتفع.

٤- وفي الحديث كذلك فضل ورقة بن نوفل، وقد رآه النبي ﷺ بعد مماته في هيئة حسنة^(١) وقال ﷺ: «لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين»^(٢).

٥- قال الحافظ: وفي هذه القصة من الفوائد استحباب تأنيس من نزل به أمر بذكر تيسيره عليه وتهوينه لديه، وأن من نزل به أمر استحب له أن يطلع عليه من يثق بنصحه وصحة رأيه.

٦- وفي حديث بيان سنة من سنن الأمم مع من يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وهي التكريه والإخراج كما قال النَّجَّارِيُّ عن قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ [النَّجَّارِيُّ: ٥٦].

وكما قال قوم شعيب: ﴿لنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الإعراف: ٨٨].

وقال النَّجَّارِيُّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [البراهين: ١٣].

٧- قوله «وفتر الوحي»:

قال صفى الرحمن المباركفوري: أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد أنها كانت أياماً، وهذا الذي يترجح بل يتعين بعد إدارة النظر في جميع الجوانب،

(١) قال الألباني: جاء من طريقين حسنهما الحافظ ابن كثير في «البداية» أخرج أحدهما أحمد من حديث عائشة والآخر أبو يعلى من حديث جابر، فلا أقل من كون الحديث حسناً بمجموع الطريقين، «فقه السيرة» هامش [٢٠١].

(٢) أخرجه البزار والحاكم (٩٠٤/٢) وابن عساكر من حديث عائشة وقول الحاكم: صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي والألباني وقال ابن كثير: «وإسناده جيد»، «فقه السيرة»، هامش (١٠٢). وقال الحافظ ابن كثير: قوله: ثم لم ينشب ورقة أن توفي أي توفي بعد هذه القصة بقليل، -رحمه الله ورضى عنه-؛ فإن مثل هذه الذي صدر عنه تصديق بما وجد وإيمان بما حصل من الوحي، ونية صالحة للمستقبل «البداية والنهاية» (٩/٣) دار الفكر.

وأما ما اشتهر من أنها دامت طيلة ثلاث سنين أو سنتين ونصف فلا يصح بحال، وليس هذا موضع التفصيل في رده، وقد بقي رسول الله ﷺ في أيام الفترة كثيباً محزوناً تعتره الحيرة. والدهشة^(١).

قال الحافظ: وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العودة^(٢).

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بينما أنا أمشي، إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرُعبتُ منه، فرجعت فقلت: زملوني. فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ ۝ قُرْآنٌ ذَرٌ ۝ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المائدة: ١-٥] فحمي الوحي وتتابع»^(٣).

قال الأستاذ عبد الوهاب حمودة: ليس بعجيب أن يزداد شوق الرسول ﷺ إلى مناجاة ربه بعد أن تذوقها واستضات روحه ببصيص الأنوار القدسية وتملي بها، فإن «من ذاق عَرَفَ ومن حرم انحرف».

(١) «الرحيق المختوم» (٧٩، ٨٠) ط. مكتبة الصحابة بجدة.

(٢) «فتح الباري» (١/٣٦).

(٣) رواه البخاري (١/٣٧) بدء الوحي، ذكر ابن إسحاق أن سورة الضحى نزلت بعد هذه الفترة من الوحي وهو ضعيف. قال في سبيل الهدى والرشاد: ما ذكره ابن إسحاق من سبب نزول سورة الضحى رواه الطبراني من طريق العوفي وهو ضعيف عن ابن عباس، ومن طريق إسماعيل مولى آل الزبير ذكره سليمان التيمي في السيرة التي جمعها. قال الحافظ: وكل هذه الروايات لا تثبت بحال، ويخالفها ما رواه الشيخان في سبب نزولها عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ اشتكى فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم يقربك منذ ليلتين أو ثلاث فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَى﴾ إلى آخر السورة، رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ رحمته الله: والحق أن الفترة التي في سبب نزول سورة الضحى غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي، فإنها دامت أياماً، وهذا لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً، فاختلفا على بعض الرواة وتحقيق الأمر سبيل الهدى والرشاد (١/٣٦٧).

وإن الله من وراء تلك الفترة وذلك الاحتباس سر المربي القادر، والمؤدب الحكيم العليم بالنفوس وبواطنها، الخبير بالقلوب وتقلباتها، فإنه لما حصلت للرسول - صلوات الله عليه - روعة عند نزول الملك عليه أولاً، وأخذته من الرجفة ما أخذته وظن نفسه هالكا، فمن الحكمة الإلهية أن يترك بعد الدرس الأول حتى يهدأ روعه ويطمئن فؤاده، وينسى ذلك الرعب ويتبدد عنه ذلك الخوف، فيتذكر لذة ذلك اللقاء وتتذوق روحه نشوة تلك المقابلة، فيقوي قلبه، ويثبت فؤاده وينتهي لقبول الرسالة، ويستعد لتلقي القول ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [التين: ١٢].

ثم أراد الله أن يمنحه ما كان في شوق إليه، وأن يؤتیه ما كانت تتوق نفسه إليه من ذلك الأنس الرحماني والكشف الإلهي، والوحي الرباني، فكان لصدره فرجاً من ذلك الضيق ولنفسه فرجاً من تلك الساعة الحرجة، فحمى الوحي وتتابع^(١).

فترة الإسرار بالدعوة المباركة

ابتدأت هذه الفترة المباركة من نزول قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ﴾^(١) ﴿قُرْآنُكَ﴾ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المائدة: ١-٣]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢) ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ أَنْبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [التجوة: ٢١٤-٢١٦].

وأكد العلماء على أن مدة هذه الفترة كانت ثلاث سنوات، فقد اجتهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الفترة في دعوة من يغلب على ظنه أنه سيدخل في هذا الدين، وسوف يكتم أمره، وهذا من باب السياسة الشرعية والنظر المصلحي للدعوة، فيجب الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر يضر بها، فدعا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوجته خديجة، وكانت أول من أسلم من النساء، ودعا صديقه الذي هو موضع ثقته وأمين سره ﴿ثَانِيًا أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فلم يتردد، وكان أول داعية

(١) «ساعات حرجة في حياة الرسول» باختصار ص (١٧، ١٨).

في الإسلام، وكان بركة إسلامه ودعوته ثلة مباركة دخلت في الدين، وكانت من السابقين الأولين وكان لها في الإسلام أعظم بذل وبلاء، فرضي الله عنهم أجمعين، منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، والنورين، والزبير بن العوام وهو حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص خال المصطفى صلى الله عليه وسلم، وطلحة بن عبيد الله، وكل هؤلاء الذين دخلوا الإسلام على يد أبي بكر من العشرة المبشرين رضي الله عنهم أجمعين.

وكان أول من أسلم من الغلمان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان ابن ثمانين سنين، وقيل: أكثر من ذلك، وكان من سابق سعادته أنه كان في كفالة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وكان أول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان غلاماً لخديجة فوهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها.

ثم دخل بعد هذه الثلاثة الفاضلة التي سبقت لها السعادة وسبقت إلى الإيمان والعبادة، ثلة أخرى كريمة فاضلة منهم أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة، وسعيد بن زيد من العشرة المبشرين، وخباب بن الأرت، وعبد الله بن مسعود، وأساء وعائشة، وقد أسلمت عائشة رضي الله عنها وهي طفلة صغيرة، أما أساء فكانت متزوجة بالزبير بن العوام.

وتوالى إسلام الأفاضل من قريش، فأسلم جعفر بن أبي طالب، وامراته أساء بنت عميس، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه. ولم تكن الدعوة في هذه الفترة علنية تقام في الأندية العامة والمجالس والمحافل، إنما تقوم على الاصطفاء الشخصي وتقدير الداعية لطبيعة المدعو.

قال الأستاذ منير الغضبان: لم نسمع في هذه المرحلة عن أي صدام وقع بين هذا المجتمع الإسلامي الناشئ وبين المجتمع الجاهلي، فأفكاره غير معلنة إلا لمن يُرجى انضمامه لهذا التجمع الإسلامي القائم، وليست الدعوة المعلنة هدفاً قائماً فيها، بل لا يتدخل المسلمون بأي شأن من شئون غيرهم في نقد أو مواجهة أو مخالفة ظاهرة، والأصل

أن لا تظهر المخالفة في شيء إلا في حالة اضطرارية قاهرة، فلا بد من المحافظة على السرية التامة للتنظيم والفكرة^(١). اهـ.

وقال المباركفوري: مرت ثلاث سنين والدعوة لم تنزل سرية وفردية، وخلال هذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين، تقوم على الأخوة والتعاون وتبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها، ثم تنزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالنته قومه ومجاهة باطلهم ومهاجمة أصنامهم^(٢). اهـ.

الضوائد والآثار الإيمانية:

١ - قال محمد البوطي: ومن هنا تدرك أن أسلوب دعوته ﷺ بالصلاة والسلام في هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إمامًا، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيًا.

وبناء على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة من حيث التكتم والجهر أو اللين والقوة حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه، وهي مرونة حددتها الشريعة الإسلامية اعتمادًا على واقع سيرته ﷺ ضمن الأشكال أو المراحل الأربعة التي سبق ذكرها^(٣)، على

(١) «المنهج الحركي للسيرة النبوية» (١/ ٣٠) المنار.

(٢) «الرحيق المختوم» لصفي الرحمن المباركفوري (٩٠).

(٣) هذه المراحل الأربعة:

المرحلة الأولى: الدعوة سرًا، واستمرت ثلاث سنوات .

المرحلة الثانية: الدعوة جهراً وباللسان فقط، دون قتال، واستمرت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهراً مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشر، واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: جهراً مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول في الإسلام بعد فترة الدعوة والإعلان من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيين. وكانت هذه المرحلة هي التي استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية وحكم الجهاد في الإسلام «فقه السيرة» (٧٥) وقسم بعضهم المرحلة الثانية إلى الدعوة داخل مكة جهراً، واستمرت إلى السنة العاشرة من الهجرة، والدعوة جهراً خارج مكة وابتدأت من السنة العاشرة إلى الهجرة.

أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية.

ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم إذا ما أجمعوا قتالهم فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس؛ لأن المصلحة المقابلة وهي مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع.

ويقرر العز بن عبد السلام حرمة الخوض في مثل هذا الجهاد قائلاً: فإذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام، لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ليس في طيها مصلحة.

قلت: وتقديم مصلحة النفس هنا، من حيث الظاهر فقط.

أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد فإنها في الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضي في مثل هذا الحال أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى، وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين نفسه، وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقترحموا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل.

والخلاصة أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها، ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهر بها، وكان ذلك مفيداً، ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهر بها، وكان ذلك مفيداً، ولا يجوز المسالمة مع الظالمين والمتربصين بها إذا توفرت أسباب القوة والدفاع عنها، ولا يجوز القعود عن جهاد الكافرين في عُقر دورهم إذا ما توفرت وسائل ذلك وأسبابه^(١). اهـ.

٢- أكثر الذين استجابوا لدعوة الرسول ﷺ من الضعفاء والموالي، وهم أقرب الناس إجابة لدعوة الرسل، لأنهم لا يصعب عليهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم، أما

(١) «فقه السيرة» لمحمد سعيد رمضان البوطي (٧٦، ٧٧) الطبعة الثامنة، وكلام العز بن عبد السلام من «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (١/٩٥).

الكبراء وأهل الجاه والسلطان فيمنعهم الكبر وحب الجاه والرفعة عن الانقياد غالباً، كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وقال قوم نوح عَنِ النَّبِيِّينَ: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

وقال عز وجل في قصة صالح عَنِ النَّبِيِّينَ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ صَالِحًا مَرَّسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِءُ كَافِرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٦].

٣- قال محمد الغزالي: والايان قوة ساحرة إذا استمكنت من شعاب القلب وتغلغت في أعماقه، تكاد تجعل المستحيل ممكناً.

ولقد رأينا شباباً وشيوخاً يلتفون عند فكرة من الفكر، ويحلونها من أنفسهم محل العقائد الراسخة، ومع أنها فكرة مادية بحتة، إلا أنهم يجعلون من حياتهم وقود حركتها ويتحملون أقبح الأذى في سبيل نصرتها.

ويرون ذلك بعض الجهد الواجب لإنجاح مبادئهم ودفعها إلى الأمام فكيف إذا كان الإيمان الذي ظهر في صدر الإسلام إيماناً بالله رب السموات والأرض، وإيماناً بالدار الآخرة حيث ينفلت الإنسان من هذه الدنيا لتستقبله في جوار الله الحقائق الغناء والقصور الزاهرة من تحتها الأنهار الجارية والنعيم المقيم^(١). اهـ.

٤- قال الشيخ أبو بكر الجزائري: لا دليل لمن يرى سرية الدعوة في بلاد المسلمين اليوم في سرية الرسول ﷺ لها ثلاث سنوات؛ لأن الرسول وأصحابه كان لا يسمح

(١) «فقه السيرة» لمحمد الغزالي (١٠٠)، باختصار.

لهم أن يقولوا لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ولا أن يؤذنوا أو يُصلوا، ولما قويت شوكتهم أمروا بالجهر بالدعوة فجهروا، ولاقوا من الأذى ما هو معروف بين المسلمين^(١) اهـ.

ولكن إذا توفرت الظروف المشابهة كان التأسي كذلك برسول الله ﷺ في هذه الفترة هو السبيل عملاً بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ١٢].

والذين يقيسون الأمور ويضبطونها بالضوابط الشرعية هم العلماء لا الشباب الذين لم يحصلوا من العلوم الشرعية القدر الواجب، ثم يجتهدون في أمور يتعلق بها مستقبل الدعوة بل ومستقبل الأمة، وأولى بهؤلاء الشباب أن يجلسوا عند أقدام العلماء للتعلم، وأن يلتزموا أمر الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

فترة الجهر بالدعوة المباركة

عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي»، قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً لك اليوم، ولهذا جمعنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝﴾ [المائدة: ١-٢]^(٢).

وعن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال: «يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، وبا

(١) «هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب» (٩٩) مكتبة لينة.

(٢) ورواه البخاري (٨/ ٣٦٠) التفسير، ومسلم (٣/ ٨٣) الإبان.

صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، وبا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»^(١).

قال الحافظ قوله: «أرايتكم لو أخبرتكم إلخ» أراد بذلك تقريرهم بأنهم يعلمون صدقه إذا أخبر عن الأمر الغائب».

وقوله: «إني نذير لكم» أي منذر، ووقع في حديث قبيصة بن محارب وزهير ابن عمرو عند مسلم وأحمد: «فجعل ينادي: إنما أنا نذير، وإنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فجعل يهتف: يا صباحاه»، يعني ينذر قومه.

وقوله في حديث أبي هريرة: «اشترتوا أنفسكم من الله» أي باعتبار تخليصها من النار كأنه قال: أسلموا تسلموا من العذاب فكان ذلك كالشراء، كأنهم جعلوا الطاعة ثمن النجاة، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]، فهناك المؤمن بائع باعتبار تحصيل الثواب والتمن الجنة، وفيه: إشارة إلى أن النفوس كلها ملك لله تعالى، وأن من أطاعه حق طاعته في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه وفي ما عليه من الثمن وبالله التوفيق^(٢).

قال صفى الرحمن المباركفوري: ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحج: ٩٤]، فقام رسول الله ﷺ يعكر على خرافات الشرك وترهاته، ويذكر حقائق الأصنام وما لها من قيمة في الحقيقة ويضرب بعجزها الأمثال، ويبين بالبينات أن من عبدها وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو في ضلال مبين.

انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار، حين سمعت صوتاً يجهر بتضليل المشركين وعباد الأصنام كأنه صاعقة قصفت السحاب فرعدت وبرقت

(١) رواه البخاري (٣٦٠ / ٨) التفسير، ومسلم (٨٣ / ٣) الإبان.

(٢) باختصار من «الفتح» (٣٦١، ٣٦٢) التفسير.

وزلزلت الجوهادى، وقامت قريش تستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة، وبخشى أن تأتي على تقاليدها وموروثاتها^(١).

وكان عدد من آمن بالدعوة المباركة نيفاً وأربعين بين رجل وامرأة، وأسلم في هذه الفترة المباركة أسد الله وأسد رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، وكذلك الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال الجزائري حفظه الله: وبإسلام عمر وحمزة رضي الله عنهما دخلت الدعوة في طور جديد، فجاهر الرسول ﷺ وصدع بما يأمره به ربه، فأقّص هذا الموقف الجديد مضجع المشركين وأفزعهم وزادهم هولاً وفزعاً تزايد عدد المسلمين وإعلانهم عن إسلامهم وعدم مبالاتهم بعداء المشركين لهم، الأمر الذي جعل رجالات قريش يساومون رسول الله ﷺ^(٢).

وكان من السمات البارزة لهذه المرحلة:

- السمة الأولى: كثرة الإيذاء واشتداد البلاء على النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم.
- السمة الثانية: مواجهة الدعوة بشتى الأساليب لصد الناس عنها، وتنفيرهم منها.
- السمة الثالثة: كثرة العروض على النبي ﷺ من أجل المساومة على الحق الذي يدعو إليه وعدم قبول النبي ﷺ لشيء من التنازلات.
- السمة الرابعة: اهتمام النبي ﷺ بتربية العقيدة الصحيحة، وصلل قلوب الصحابة بالقيام والصيام وتلاوة القرآن.
- السمة الخامسة: تربية النبي ﷺ للصحابة على الصبر على الإيذاء، وعدم الانتصار للنفس والإعراض عن الجاهلين.

(١) «الرحيق المختوم» (٩٣، ٩٤).

(٢) «هذا الحبيب رسول الله ﷺ يا محب» [٩٨]. ط. مكتبة لينة.

السمة السادسة: تبشير الصحابة رضي الله عنهم بالنصر والتمكين وهم يعانون أشد ألوان العذاب.

ولما كانت هذه المرحلة بعينها هي المرحلة التي تعيشها الدعوة في هذه الأزمان في جل بلاد الأرض، نسأل الله أن يعيننا على إلقاء الضوء عليها وأخذ العبرة منها، لعل شباب الصحوة يتضح لهم الطريق إلى العزة والتمكين، ويتبعون هدي سيد الأولين والآخرين فقد قال إمام دار الهجرة رحمته الله: لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أمر أولها. وسنن الله عز وجل في عباده واحدة لا تتغير ولا تتبدل: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الاحزاب: ٢٦]، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

فإن الجميع يتساءل: كيف السبيل إلى عز الإسلام والمسلمين؟

ومتى يصل المسلمون المخلصون إلى الأمل المنشود والوعد الموعود وهو سعادة الناس في ظل التحاكم إلى شريعة ربهم عز وجل، وتخلصهم من أحكام الكفر وشرائعه، واختلفت الأجوبة على هذا السؤال بلسان الحال أو المقال، فمنهم: من يزعم أنه لا بد من الوصول إلى الجاه والسلطان ودخول البرلمان، ومنهم: من يزعم أن السبيل هو جمع المال والتحكم في الاقتصاد، ومنهم: من يزعم أن الوصول إلى هذا الهدف بمعركة خاطفة سريعة. وفي عشية أو ضحاها يتم التوصل إلى الهدف المنشود. ومنهم: من لا يهدف لذلك أصلاً، بل يظن أن الدعوة الإسلامية هي دعوة إصلاحية لإصلاح أخلاق الناس ومعاملاتهم، وغاية أمرهم أن يقيم الناس الصلاة ويؤدوا الزكاة ويصوموا رمضان ويحجوا البيت، وليس عندهم استعداد أصلاً للتضحية حتى ترتفع راية لا إله إلا الله، وحتى ينزاح الشر والشرك، وتنعم البشرية مرة ثانية بحكم ربها عز وجل.

واختصاراً وقبل أن نفصل سمات مرحلة جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة وتسفيه أحلام المشركين وسب أهتهم حتى يظهر النهج النبوي الواضح، ونقف على

المحجة البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ نقول: إن طريق البرلمان ليس حلاً إسلامياً صحيحاً، لأن ذلك لا يكون إلا بكثير من التنازلات والمهاترات السياسية والمداهنة في أعظم قضية في هذا الدين وهي قضية التوحيد التي هي لب الدين الذي أرسل به رسول الله ﷺ بل وسائر الأنبياء والمرسلين. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

فليس طريق البرلمان طريقاً إلى عز الإسلام والمسلمين، فكيف السبيل إذن؟ هل هو جمع الأموال وتأسيس الشركات الإسلامية لجمع أسباب العزة؟ ولعل أصحاب هذا الفكر غرهم سيطرة اليهود _ عليهم لعائن الله _ على سياسة بعض الدول الكبرى نتيجة لتحكمهم في اقتصاديات تلك الدول، فظنوا أن المسلمين سيصيرون أعزة بجمع المال والتحكم في الاقتصاد، وغفلوا عن قول النبي ﷺ: «اعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس»^(١).

وقوله ﷺ: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تفتح الدنيا عليكم كما فتحت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»^(٢).

وغفلوا كذلك عن قول عمر رضي الله عنه: «كنا أذل الناس، فأعزنا الله برسوله، فمهما طلبنا العزة بغيره أذلنا الله عز وجل».

فهذه الأمة لا يمكن أن تكون عزيزة إلا باتباع دينها وتعظيم أمر ربها، فما السبيل إذن؟ هل هو سبيل الانقلابات العسكرية والعمليات الانتحارية، وفي سويغات معدودة

(١) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (ص: ١٢٧) وأعله بأن داود حدث عن الأوزاعي وغيره بالبواطيل وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» من رواية العقيلي. قال الألباني: لكن للحديث شواهد مرفوعة يرتقى الحديث بها إلى درجة الحسن - إن شاء الله تعالى - «الصححة» رقم [١٩٠٣].
(٢) رواه البخاري (٢٤٨/١١) الرقاق، والترمذي (٢٨٦، ٢٨٧) صفة القيامة.

يتم التمكين للإسلام والمسلمين، ومن تدبر دعوة النبي ﷺ، بل وجميع الأنبياء قبله يعلم علمًا يقينياً أن هذا الطريق ليس طريق الأنبياء، وأن هذا السبيل مخالف للسنن الشرعية والكونية، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرَّعْدَ: ١١]، فلا بد من انتشار الدعوة وإصلاح قلوب الناس وجوارحهم بالتوحيد وطاعة الشرع المجيد، هذا رسول الله ﷺ بقي في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو للتوحيد، ويربي أصحابه بقيام الليل وسائر العبادات، ويتحمل ويتحملون معه أشد ألوان التعذيب والاستهزاء، وسوف نسوق بإذن الله شيئاً من ذلك في موضعه حتى يتبين لإخواننا كيف تبدأ الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ.

لما بايع الأنصار بيعة العقبة الثانية قالوا: لو شئت لملنا على أهل الوادي فقتلناهم دفعة واحدة فقال ﷺ: «إني لم أؤمر بذلك». ونزل عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النِّسَاء: ٧٧].

هل أصحاب هذا الفكر أغير على الدين من سيد الأولين والآخرين؟ كيف كان النبي ﷺ بمكة عندما جهر بالدعوة؟ وكيف كان حال الصحابة الكرام؟ كيف ربي النبي ﷺ أصحابه؟ كيف مهد النبي ﷺ لإقامة الدولة المسلمة بالمدينة؟

هذا ما ينبغي أن يتعلمه الشباب المسلم المخلص، حتى لا يُضيع سعيهم ويضمحل أمرهم، دون مصلحة شرعية، وهذا ما نرجو أن يظهر جلياً بإذن الله تعالى وتوفيقه في دراسة هذا الفصل من السيرة النبوية، ولنشرع في السمات التي تميزت بها هذه المرحلة والله المستعان.

السمة الأولى: كثرة الإيذاء واشتداد البلاء على النبي ﷺ وأصحابه الكرام:

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلي جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر لا أغني شيئاً لو كانت لي منعة. قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءت فاطمة فطرحت على ظهره، فرفع رأسه ثم قال: «اللهم عليك بقريش» ثلاث مرات، فشق عليهم إذا دعا عليهم. قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ثم سَمَى «اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، وأميمة بن خلف، وعقبة بن أبي معيط» وعد السابع فلم نحفظه، قال: «فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر»^(١).

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم! فقال: واللات والعزى لئن رأيت لأطأن على رقبتك ولأعفرن وجهه فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ رقبتك، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهوؤلاء أجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»^(٢).

(١) رواه البخاري (٤١٦/١) الوضوء، ومسلم (١٥١/١٢)، ١٥٢) الجهاد والمسير.

والسلي: هي الجلدة التي يكون فيها الولد يقال لها ذلك من البهائم، وأما من الأدميات فالمشيمة.

(٢) رواه مسلم (١٣٩/١٧) «صفة القيامة والجنة والنار».

وللحديث بقية: قال: فأنزل الله عزَّ وجلَّ لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾، وقال النووي: ولهذا الحديث أمثلة كثيرة في عصمته ﷺ من أبي جهل وغيره ممن أراد به ضرراً، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذه الآية نزلت بعد الهجرة والله أعلم.

وعن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ قال: بينما النبي ﷺ يُصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذه بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ قال: ﴿أَفَقُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [تآفة: ٢٨: (١)].

وإذا كانت هذه الاعتداءات على النبي ﷺ وله من الجلال والوقار في نفوس العامة والخاصة فكيف بالصحابة الكرام، لاسيما الضعفاء منهم، وسوف نسوق شيئاً من ذلك ليكون فيه سلوى وعزاء للدعاة إلى الله عزَّ وجلَّ في هذه الأزمنة الغابرة تثبت أقدامهم على الطريق، وتعطيهم القدوة والمثل.

عن خباب بن الأرت أنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة، ولقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟، فقعد وهو مُحَمَّر وجهه فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظمه من لحمٍ أو عصبٍ ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله» (٢).

وعن عبد الله بن مسعود قال: «كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سُمَيَّة، وصُهَيْب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم من أحدٍ إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أَحَدٌ أَحَدٌ» (٣).

(١) رواه البخاري (٣٠٢/٧) مناقب الأنصار.

(٢) رواه البخاري (٢٠٢/٧) مناقب الأنصار، وأحمد (١٠٩/٥).

(٣) رواه ابن ماجه رقم [١٥٠] المقدمة وحسنه الألباني .

وعن قيس بن أبي حازم رحمته الله قال: «سمعت سعيد بن زيد بن عمرو في مسجد الكوفة يقول: والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلم عمر»^(١).

وعن ابن عباس في قصة إسلام أبي ذر، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري». قال: «والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن، محمداً رسول الله، ثم قام القوم فضربوه حتى أوجعوه، وأتى العباس فأكبَّ عليه قال: ويلكم، أستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجاركم إلى الشام؟ فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه فأكبَّ العباس عليه»^(٢).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - هذا الباب تقرير وتأكيد لقول الله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [الجن: ١].

ولقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؕ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ولقوله تعالى: ﴿تُجَلَّبَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْتُمْ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ١١٨].

ومن الفوائد هذا الابتلاء تمحيص المؤمنين ومحق الكافرين: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

(١) رواه البخاري (٢١٤/٧) مناقب الأنصار.

وقوله «لموثقي»: أي أن عمر رحمته الله ربطه بسبب إهانة له وإلزاماً بالرجوع عن الإسلام.

(٢) رواه البخاري (٢١١/٧) مناقب الأنصار.

وحتى يتخذ الله أولياء وشهداء، ونسأل الله تعالى شهادة في سبيله مُقبلين غير مُدبرين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: والمقصود أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس وبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكرامته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكير الامتحان كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظلمة، وقد حصل لها من الجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار وإلا ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد ونقي أُذن له في دخول الجنة^(١).

٢- قال الجزائري حَفَظَهُ اللهُ في النتائج والعبر: بيان صدق وعد الله تعالى لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجرات: ٩٥].

فقد كفاه إياهم بأن أهلكهم كلهم والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشاهد هلاكهم في فترة وجيزة وزمنٍ قليل^(٢).

٣- قال الدكتور/محمد البوطي: كان من الممكن أن لا يأمر الله رسوله بإنذار عشيرته وذوي قرباه خاصةً اكتفاء بعموم أمره الآخر وهو قوله: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجرات: ٩٤]، إذ يدخل أفراد عشيرته وذوو قرباه في عموم الذين سيصدع أمامهم بالدعوة والإنذار، فما الحكمة في خصوصية الأمر بإنذار العشيرة؟

فأدنى درجة في المسؤولية هي مسئوليته الشخص عن نفسه، ومن أجل إعطاء هذه الدرجة حقها استمرت فترة ابتداء الوحي تلك المدة الطويلة التي رأيناها، أي ريثما يطمئن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أنه نبي مرسل، وأن ما ينزل عليه إنما هو وحي من الله عزَّ وجلَّ فيؤمن هو بنفسه أولاً ويؤمن ذاته لقبول كل ما سيتلقاه من مبادئ ونظم وأحكام.

(١) «زاد المعاد في هدى خير العباد» لابن القيم (١٨/٣) ط. الرسالة بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

(٢) «هذا الحبيب» [١١٩].

أما الدرجة التي تليها، فهي مسئولية المسلم عن أهله، ومن يلوذون به من ذوي قربه، وتوجيهًا إلى القيام بحق هذه المسئولية خصص الله الأهل والأقارب بضرورة الإنذار والتبليغ بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به.

وأما الدرجة الثالثة: فهي مسئولية العالم عن حيه أو بلده ومسئولية الحاكم عن دولته وقومه وكل منهما ينوبان في ذلك مناب رسول الله ﷺ^(١).

وقال الأستاذ منير الغضبان: فالشيء الطبيعي أن تكون الدعوة في المرحلة الأولى في صفوف الأقربين، وخاصة عندما تأخذ طابع المواجهة العلنية، لأن هذه المواجهة تُعرض الداعية للخطر فلا بد له من حماية، وعشيرة الداعية هم أكثر الناس استعدادًا للحماية، فلقد كان أول الخلق إسلامًا بعد رسول الله ﷺ زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان مقيمًا عنده^(٢).

٤ - يقول الشيخ محمد الغزالي: إن محمدًا - صلوات الله وسلامه عليه - لم يجمع أصحابه على مغنم عاجل أو آجل، إنه أزاح الغشاوة عن الأعين فأبصرت الحق الذي حجبت عنه دهرًا، ومسح الران عن القلوب فعرفت اليقين الذي فطرت عليه وحرمتها الجاهلية منه، إنه وصل البشر برهم، فربطهم بنسبهم العريق وسببهم الوثيق، وكانوا - قبلًا - حيارى محسورين، إنه وازن بين الخلود والفناء، فأثروا الدار الآخرة على الدار الزائلة، وخيرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم فازدروا الأوثان المنحوتة، وتوجهوا للذي فطر السماوات والأرض.

حسب محمد ﷺ أنه قدم هذا الخير الجزيل، وحسب أصحابه أن ساقته العناية لهم، فإذا أُوذوا فليحتسبوا، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان فليلزموا ما عرفوا، والحرب القائمة بين الكفر والإيمان سينجلي غبارها يومًا ما، ثم تنكشف عن شهداء وهلكى، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين بإذن الله.

(١) فقه السيرة [٨١] باختصار.

(٢) «المنهج الحركي للسيرة النبوية» (٤١ / ١) باختصار.

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴾ (١٣١) وَأَنْظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٣٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿هُوَ﴾: [١٢١-١٢٣] (١).

٥- قال الدكتور مصطفى السباعي: إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن ينزل بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد دليل على صدق إيمانهم، وإخلاصهم في مُعتقداتهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل، وما يأملونه من رضا الله جلَّ شأنه، أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد.

إن السيطرة في المؤمنين الصادقين والدُّعاة المخلصين تكون دائمةً وأبداً لأرواحهم لا لأجسادهم، وهم يُسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم من حيث لا يُبالون بما تتطلبه جسامهم من راحة وشبع ولذة، وبهذا تنتصر الدعوات، وبهذا تتحرر الجماهير من الظلمات والجهالات (٢).

السمة الثانية: مواجهة الدعوة بشتى الأساليب لصد الناس عنها وتنصيرهم منها:

قال صفي الرحمن المباركفوري ما ملخصه: ولما رأت قريش أن محمداً ﷺ لا يصرفه عن دعوته هذا ولا ذاك، فكروا مرة أخرى واختاروا لقمع هذه الدعوة أساليب تتلخص فيما يأتي:

١- السخرية والتحقير والاستهزاء والتكذيب والتضحيك، قصدوا بها تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي ﷺ بتهم هازلة، وشتائم سفينة فكانوا ينادونه بالمجنون ﴿ وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦].

(١) فقه السيرة: [١١٢، ١١٣].

(٢) «السيرة النبوية» دروس وعبر (٤٩، ٥٠) المكتب الإسلامي.

ويصمونه بالسحر والكذب ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ﴾ [ص: ٤].

وكانوا كما قصّ علينا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَضٰلُّونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حٰفِظِينَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٣].

٢- تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات، وبث الدعايات الكاذبة، ونشر الإيرادات الواهية حول هذه التعاليم، وحول ذاته وشخصيته، والإكثار من كل ذلك بحيث لا يبقى للعامّة مجال في تدبر دعوته، فكانوا يقولون عن القرآن: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفقّان: ٥]، ﴿إِنَّ هٰذَا إِلَّا آفِكُ افْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ﴾ [الفقّان: ٤]، وكانوا يقولون: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [الحجّك: ١٠٣].

وكانوا يقولون عن الرسول ﷺ: ﴿وَقَالُوا مَا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفقّان: ٧]. وفي القرآن نياذج كثيرة للردود على إيراداتهم بعد نقلها أو من غير نقلها.

٣- معارضة القرآن بأساطير الأولين وتشغيل الناس بها عنه، فقد ذكروا أن النضر ابن الحارث قال مرة لقريش: يا معشر قريش! والله لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدنًا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بها جاءكم به قلتم: كاهن!! لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم. وقلت: شاعر، لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه، وقلت: مجنون!! لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

ثم ذهب النضر إلى الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك فارس، وأحاديث رستم وأسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً للتذكير بالله والتحذير من نعمته خلفه النضر ويقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟^(١).

٤- مساومات حاولوا بها أن يلتقى الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه ﴿وَدُوا لَوْ نَدَّهْنُ فَيَدَّهْنُونَ﴾ [القتال: ٩].

وروى ابن إسحاق بسنده قال: اعترض رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل السهمي، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهُمُ الْكُفْرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [البكورة: ١-٢] السورة كلها^(٢)، وحسم الله مفاوضتهم المضحكة بهذه المفاضلة الجازمة.

٥- ومن هذه الأساليب التعذيب والإيذاء وقد تقدم شيئاً من ذلك في الفصل السابق، ومنها: المقاطعة والحصار الاقتصادي وسوف يأتي بيانه - إن شاء الله تعالى -، ومنها: كثرة العروض على النبي ﷺ للتنازل عن قضية التوحيد، وسيأتي ذكرها كذلك - إن شاء الله -.

٦- ومن هذه الأساليب كثرة مساومتهم لعمه أبي طالب من أجل أن يتخلى عن حمايته والدفاع عنه فامتنع من ذلك، ودعا أقرابه إلى نصرته، فأجابه بنو هاشم وبنو المطلب غير أبي لهب، وقال في ذلك الأبيات المشهورة:

(١) من «سيرة ابن هشام» ومعها «الروض الأنف» (٢/١٠٧، ١٠٨).

(٢) الرحيق المختوم باختصار (٩٧-٩٩).

وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتَّى أَوْسَدَ فِي السُّرَابِ دَفِينًا
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَابَةٌ وَأَبْشُرْ وَقَرِّبِ ذَاكَ مِنْكَ عَيْونًا
وَدَعَوْتَنِي وَعَرَفْتُ أَنَّكَ نَاصِحِي وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ تَمَّ أَمِينًا
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِّيَّةِ دِينًا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارُ مَسْئَبَةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمِحًا بِذَلِكَ مُبِينًا^(١).

٧- ومن هذه الأساليب تحديهم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسؤال الآيات:

قال الشيخ محمد الخضري: ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التي يعرضونها لا تقبل منهم، أرادوا أن يدخلوا من باب آخر، وهو تعجيز الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطلب الآيات، فاجتمعوا وقالوا: يا محمد إن كنت صادقاً فأرنا آية نطلبها منك، وهي أن تشق لنا القمر مزقتين، فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشهدوا»^(٢).

وهذه القصة رواها عبد الله بن مسعود وهو من السابقين الأولين رويت عنه من طرق كثيرة ورواها عبد الله بن عباس وغيره، ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر، وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى أول سورة القمر: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى. قال بعضهم: لقد سحركم ابن أبي كبشة فأنزل الله فيهم ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾

[القمر: ٢]

(١) نقلاً عن «مختصر سيرة الرسول» صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإمام عبد الله محمد بن عبد الوهاب [٦٩] مكتبة الرياض الحديثة.

(٢) «نور اليقين في سيرة المرسلين» [٦٩، ٧١] بتصرف، ط. الأزهر.

ثم سألوا رسول الله ﷺ بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد، فمنها أن قالوا، كما في سورة الإسراء: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝١٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝١١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا ۝١٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۝١٣ ﴾ [الإسراء: ٩٠، ٩٣]، ولم يجبههم الله عزَّ وجلَّ إلا بقوله: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝١٤ ﴾ [الإسراء: ٩٣] لأن الله تعالى علم ما تكنه جوانحهم من التعصب والعناد فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات، كما قال جلَّ ذكره في سورة الأنعام: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥ ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وكيف يرجى الخير ممن قالوا، كما في سورة الأنفال: ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُوَ الْحَقُّ مِنِّي فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٦ ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه^(١).

الضوائد والآثار الإيمانية:

١ - لا شك أن الصراع بين الحق والباطل قصته واحدة وإن اختلفت صور هذا الصراع، ومن أساليب أهل الباطل التشويه للدعوة الصحيحة وللدعاة إليها، وإن كان هذا التشويه في الماضي هو رمي أصحابها بالجنون والسحر وغير ذلك، فإن أهل الباطل الآن يرمون أهل الحق بالتطرف والتعصب، وهم يصدون عن سبيل الله وبيغونها عوجًا، ويحاولون أن يقنعوا أنفسهم وغيرهم أنهم لا يحاربون الإسلام، ولكن يحاربون التطرف في فهمه، ويحسبون بذلك أنهم يُحسنون صنعًا، ولأنهم تركوا أكثر شرائع الإسلام واقتصروا على النذر اليسير منه كان من يلتزم بجملة شرائع الإسلام في نظرهم من المتطرفين الشاذين، وفي الواقع هم المتطرفون الشاذون لأنهم أخذوا طرفًا منه وأعرضوا عن بقيته وشدُّوا عن جماعة المسلمين التي تحافظ على الإسلام كله، وتدعو للإسلام كله ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ۝٢٠ ﴾ [البؤخ: ٢٠].

(١) «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» (٦٩، ٧١) بتصرف، ط. الأزهر.

٢- ومن الوسائل الحديثة كذلك في مواجهة الصحوة الإسلامية إغراق الناس في الشهوات، وذلك بالإعلام الماجن الذي يشيع الفواحش وينشر الرذيلة، على أمل من القائمين على الحكم أن ينحرف أكثر الشباب في تيار الإباحية والفجور، فلا ينفعهم نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، وكما قال بعض أئمة الكفر: كأس وغانية يفعلان في أمة الشرق أكثر مما يفعله ألف مدفع.

ولما سألوا الشيوعي الكافر كارل ماركس: ما هو البديل عن عقيدة الألوهية؟ قال: البديل هو المسرح، أشغلوهم عن عقيدة الألوهية بالمسرح. وما أدراك ما المسرح في دعوته السافرة إلى محاربة الأخلاق والأديان.

٣- ومن هذه الوسائل كثرة الاعتقالات والتهديد بالسجن والتعذيب لمن يحمل راية الدعوة الإسلامية، وكم من شباب اشتد عوده في السجن فخرج منه وهو أصلب عودًا وأقدر على البذل والجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ، وهلاك الشباب ليس في السجون وإنما الهلاك في الدنيا وشهواتها والحرص عليها، قال النبي ﷺ: «ما الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا فَتَحَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتَهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»^(١).

٤- قال الدكتور مصطفى السباعي: إن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر، فهم كلما أخفقت لهم وسيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق، ابتكروا وسائل أخرى، وهكذا حتى ينتصر الحق انتصاره النهائي، ويلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة^(٢).

٥- قال الشيخ محمد الغزالي: إن الطحالب العائمة لا تقف السفن الماخرة، ولئن نقم الجاهليون على المسلمين مروقهم من بين قومهم حتى ليسمونهم الصباه فإن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «السيرة النبوية» دروس وعبر [٥١] المكتب الإسلامي.

المسلمين لأشد نعمة عليهم، أن سفهوا أنفسهم، وحقروا عقولهم، وتشبثوا بخرافات ما أنزل الله بها من سلطان.

إن الدعوة التي بدأ بها محمد ﷺ من بطن مكة لم تكن لبناء وطن صغير، بل كانت إنشاءً جديداً لأجيال وأمم تتوارث الحق وتدفع به في رحاب الأرض، إلى أن تنتهي من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء. فماذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة لرسالة هذا شأنها في حاضرها ومستقبلها؟ ومن أولئك الخصوم؟

- متعصبون تحجرت عقولهم تزين لهم سطوتهم البطش بمن يخالفهم ﴿وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

- أم مترفون سرّتهم ثروتهم يحبون الباطل لأنه على أرائك وثيرة ويكرهون الحق لأنه عاطل عن الحلي والمتاع ﴿وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [التين: ٧٣].

- أم متعنتون يحسبون هداية الرحمن عبث صبيية، أو أزياء غانية، فهم يقولون: دع هذا وهات هذا، ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

- أو مهرجون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر، عندما تقرأ الآيات حتى لا تسمع فتفهم، فتترك أثرًا في عقل نقي وقلب طيب ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمِعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] (١).

(١) «فقه السيرة» [١٠٧، ١٠٨] باختصار.

حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فَصَّلَتْ: ١٣] (١).

الفوائد والآثار الإيمانية:

- ١- قال الجزائري: إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجمها في الآتي:
 - إثبات حيرة المشركين إزاء الدعوة المحمدية وإلى اليوم.
 - بيان استعمال المشركين أسلوب المساومات لإحباط الدعوة وإطفاء نورها.
 - ثبات النبي ﷺ ووقوفه كأنه جبلٌ أشم أمام المساومات والتحديات (٢).
- ٢- ولا شك في أن هذا العرض المغربي لو عُرض على أصحاب الحل البرلماني لقالوا ذلك ما كنا نبغي؛ يكون لنا الحكم والسلطان، ثم نطبق شرع الله عزَّ وجلَّ، ولكن النبي ﷺ يعلم أن مُقابل ذلك ثمن باهظ وهو المداهنة في قضية التوحيد أخطر قضية في الدين وهي لا تقبل المداهنة فطريق الرسل هو البداية بإصلاح القلوب والجوارح، ثم بعد ذلك يفتح الله عزَّ وجلَّ عليهم أسباب العزة والنصر والتمكين.
- ٣- عدم قبول هذه العروض والدخول في مساومات الكفار داخل ولا شك في أمر الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، فالإعراض عن المشركين يشمل الإعراض عن عروضهم ومساوماتهم، ونلاحظ أن النبي ﷺ لم يناقش اقتراحاته فهي أسقط وأذل من أن يناقشها رسول الله ﷺ، ولكنه وجدها فرصة لأن يدعوه إلى الله عزَّ وجلَّ، ويقرأ عليه القرآن والقلوب المستعدة للإيمان المهياة له تنقاد وتلين به، أما القلوب القاسية فإنها لا تتأثر ولا تزداد إلا غيًّا وضلالاً.

(١) قال الألباني: هذه القصة أخرجها ابن إسحاق في «الغازي» (١/ ١٨٥) من «سيرة ابن هشام»، بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا، ووصله عبد بن حميد وأبو يعلى والبغوي من طريق أخرى من حديث جابر رضي الله عنه كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٩٠، ٩١) وسنده حسن _ إن شاء الله _.

(٢) باختصار من «هذا الحبيب يا محب» (١٠٩-١١٠).

السمتة الرابعة: اهتمام النبي ﷺ بتربية الإيمان في قلوب الصحابة وذلك بالاعتقاد الصحيح والتربية بالعبادات:

لا شك ونحن نتلمس خطوات النبي ﷺ في إقامة دولة الإسلام، يظهر جلياً كيف كان القرآن ينزل في هذه الفترة بتربية الإيمان في قلوب الصحابة الكرام وذلك بتقرير عقيدة التوحيد، والإيمان باليوم الآخر.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما نزل من القرآن سورة فيها ذكر الجنة والنار -تعني سورة المدثر- وهي ثاني سورة وفيها يقول جلّ وعلا: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝﴾ [المدثر: ٨-١٠]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۝﴾ [المدثر: ٣١]، وقوله جلّ وعلا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ۝﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿فِي جَنَّةٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝﴾ [المدثر: ٤٠] عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿﴾ [المدثر: ٣٨-٤١] حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، ولو نزل الحلال والحرام، ولو نزل من أول الأمر لا تنزوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، ولو نزل لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. أنزل على النبي ﷺ وأنا جارية لعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ ۝﴾ [الشمس: ٤٦] وما نزلت البقرة والنساء إلا وأنا عنده بالمدينة.

وكانت هذه الفترة المباركة كذلك فرصة لتربية الصحابة بالقيم وسائر العبادات، وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما: عشنا برهة من الدهر وكان أحدنا يؤتي الإيمان قبل القرآن. فهذا يدل على أن منهج الصحابة رضي الله عنهم تقديم الإيمان على العلم، وكذلك العلم قبل القول والعمل.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: فرض الله عزَّ وجلَّ على نبيه صلى الله عليه وسلم قيام الليل، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وقام الصحابة معه حولًا كاملاً، واحتجز الله عزَّ وجلَّ خاتمة السورة اثنا عشر شهراً، ثم نزل بعد ذلك التخفيف^(١).

وإنما قصدت رضي الله عنها فرض قيام في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمِلُ^(١) فَرِئِيلَ إِلا قَلِيلاً^(٢) يَصْفَهُ^(٣) أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلاً^(٤) أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَتِلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً^(٥) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَلَاثَةً^(٦) أَلَيْلٍ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلاً^(٧)﴾ [المزمل: ١-٦].

وقصدت رضي الله عنها بالتخفيف الآية الأخيرة من السورة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَصَفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ^(٨) وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ^(٩) عَلِمَ أَنَّ لَن تُخْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ^(١٠) فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ^(١١)﴾ [المزمل: ٢٠].

وقال صفي الرحمن المباركفوري: ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يغذي أرواحهم برغائب الإيمان، ويُزكي نفوسهم بتعلم الحكمة والقرآن، ويربيهم تربية دقيقة عميقة، ويحدو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح، ونقاء القلب، ونظافة الخلق، والتحرر من سلطان الماديات، والمقاومة للشهوات، والنزوع إلى رب الأرض والسموات، ويُزكي جمرة قلوبهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويأخذهم بالصبر على الأذى، والصفح الجميل، وقهر النفس، فزادوا رسوخاً في الدين، وعزوفاً عن الشهوات، وتفانياً في سبيل المروءة، وحنيناً إلى الجنة، وحرصاً على العلم، وفقهاً في الدين، ومحاسبة للنفس، وقهراً للنزعات، وغلبة على العواطف، وتسيطراً على الثائرات والهائجات، وتقيداً بالصبر والهدوء والوقار^(١٢).

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٢٦/٦) «صلاة المسافرين»، وأحمد (٥٤/٦)؛ وأبو داود [١٣٢٨] «قيام

الليل»، والنسائي (١٩٩/٤) «قيام الليل».

(٢) «الرحيق المختوم» [١٤٧].

السمة الخامسة: تربية النبي ﷺ للصحابة على الصبر على

الإيذاء والإعراض عن الجاهلين:

ويظهر هذا جلياً في قصة خباب عندما شكى إلى النبي ﷺ قال خباب: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا! ألا تدعو لنا. فقال: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيَجَاءُ فِيهَا، ثُمَّ يَوْتِي بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لِحْمِهِ وَعَظْمِهِ مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيَتَمَنَّ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ فَلَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذَّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(١).

ولا شك في أن كلام رسول الله ﷺ أبلغ تسلياً وتربية على الصبر وهو لا شك ﷺ يستنصر لهم ويدعو لهم إلا أنه أراد ﷺ أن يعلموا أن ذلك سنة ماضية، وأن أهل الإيمان لابد أن يتعرضوا للبلاء، ثم بشرهم كذلك بالنصر والتمكين، وتبديل مخاوفهم أمناً كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ [الشورى: ٥٥].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]: أي يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم، وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجهاد والجلاد^(٢).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٤٩) ط. دار المعرفة، بيروت، للحافظ ابن كثير.

وقال سيد قطب: ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة لقوم معينين وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به.

وربما كان ذلك أيضًا لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ويؤذونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص بل من قاداته، ألم يكن عمر بن الخطاب من بينهم، وربما كان أيضًا لقلّة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة^(١).

أما الإعراض عن المشركين في قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

[الحجّ: ٩٤]

قال الأستاذ/ منير الغضبان: إن الإعراض عن المشركين يعني فكرتين في وقت واحد.

الفكرة الأولى: المسيرة بالدعوة من الداعية وإيضاح معالمها غير عابئ بغضب خصومها أو مشاعرهم أو آرائهم.

الفكرة الثانية: عدم مواجهة أذاهم المادي والمعنوي ومحاولاتهم تجريحه والنيل منه والهزاء به، ممثلًا في قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَلِّمْ عَلَيْهِمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]^(٢).

لذا ننصح أنفسنا وإخواننا بالقيام بالدعوة إلى الله عزّ وجلّ والجهربها غير خائفين ولا هيبابين، وفي نفس الوقت نوطن أنفسنا على الصبر على الإيذاء والبلاء، ونسأل الله

(١) «في ظلال القرآن» لسيد قطب: (٣/١٤٣٨).

(٢) «المنهج الحركي للسيرة النبوية» (١/٤٤).

لنا ولإخواننا ولسائر المسلمين العفو والعافية في الدنيا والآخرة، وليس معنى ذلك أن يتمنى العبد البلاء، فقد قال النبي ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ فَإِذَا لَقِيتُمْوَهُمْ فَاصْبِرُوا»^(١).

ولا يستجلب كذلك البلاء لنفسه بأعمال لا يعود منها عز للإسلام وأهله، وإنما هو جلب للبلاء بلا أدنى مصلحة، قال النبي ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَذَلَ نَفْسَهُ»، قالوا: كيف يذل نفسه؟ قال: «يُعَرِّضُ نَفْسَهُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يَطِيقُ»^(٢). فلا بد من ضبط الأمور بالضوابط الشرعية، وتقدير المصالح والمفاسد، والتفريق بين المصلحة المتيقنة والمتوهمة، حتى لا تضيع الجهود وتحمل الأضرار والمفاسد طلباً لمصلحة متوهمة بعيدة المنال.

ولعل شوق المسلمين إلى التحاكم إلى شرع الله عزَّ وجلَّ، وحبهم لدين الله عزَّ وجلَّ ولانتصاره يجعلهم يتعجلون الخطى، ويتوهمون أن الإسلام صار قاب قوسين أو أدنى، ثم معرفة مراحل الدعوة والعبودية المطلوبة في كل مرحلة واجب على كل مسلم مخلص يرجو عز الإسلام والمسلمين.

(١) رواه البخاري (١٨١/٦) الجهاد، ومسلم (٤٥/١٢) الجهاد، ومسلم (٤٥/١٢) الجهاد.

وقال النووي: إنما نهي عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب، والاتكال على النفس والثوق بالقوة وهو نوع بغي، وقد ضمن الله تعالى لمن بغي عليه أن ينصره ولأنه يتضمن قلة الاهتمام واحتقاره وهذا يخالف الاحتياط والحزم وتأوله بعضهم على النهي عن التمني في صورة خاصة وهي إذا شك في المصلحة فيه وحصول ضرر وإلا فالقتال كله فضيلة وطاعة والصحيح الأول، ولهذا تممه ﷺ بقوله ﷺ: «وَأَسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ» وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطن في الدين والدنيا والآخرة. اللهم إني أسألك العافية العامة لي ولأحبائي ولجميع المسلمين «شرح النووي على صحيح مسلم» هامش (٤٦/١٢).

(٢) رواه الترمذي (١١٢/٩) الفتن، وابن ماجه [٤٠١٦] وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني.

السمة السادسة: تبشير الصحابة رضي الله عنهم بالنصر والتمكين وهم يعانون

أشد ألوان الأذى:

قال الشيخ محمد الغزالي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ييث عناصر الثقة في قلوب رجاله، ويفيض عليهم مما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام وانتشار مبادئه، وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في المشارق والمغرب، وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضحكهم؛ كان الأسود بن عبد المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يتغامزون بهم ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون غداً على ملك كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون^(١).

وقال صفى الرحمن المباركفوري: كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد، وبل ومن قبله، أن الدخول في الإسلام ليس معناه جر المصائب والحتوف، بل إن الدعوة الإسلامية تهدف منذ أول يومها إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها العاشم، وأن من أهدافها الأساسية بسط النفوذ على الأرض والسيطرة على الموقف السياسي في العالم، لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله، وتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله.

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات مرة بالتصريح وأخرى بالكناية ففي تلك الفترات القاسية التي ضيقت الأرض على المسلمين وكادت تخنقهم وتقضي على حياتهم، كانت تنزل الآيات بما جرى بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التي تطابق تماماً أحوال مسلمي مكة وكفارها، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين وإيراث عباد الله الأرض والديار، فكانت في هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة في المستقبل ونجاح المسلمين، مع نجاح الدعوة الإسلامية.

(١) «فقه السيرة» [١١٣].

وفي هذه الفترات نزلت آيات تصرح ببشارة غلبة المؤمنين، **﴿قَالَ تَجَالَىٰ ۖ ﴿١٧٣﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾** فَنَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصَرَهُمْ سَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعِدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِنِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الصَّافَات: ١٧١-١٧٧]

وقال: **﴿سَيَهْرِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾** [الْقَمَر: ٤٥].

وقال: **﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾** [ص: ١١].

ونزلت في الذين هاجروا إلى الحبشة: **﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبِّؤَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۗ وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾** [التَّحْكَم: ٤١].

وحيثما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان، وكان الكفار يجبون غلبة الفرس بصفتهم مشركين، والمسلمون يجبون غلبة الرومان بصفتهم مؤمنين بالله والرسول والوحي والكتب واليوم الآخر، وكانت الغلبة للفرس، أنزل الله ببشارة غلبة الروم في بضع سنين، ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة الواحدة، بل صرح ببشارة أخرى وهي نصر المؤمنين، حيث قال: **﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ ﴿٥﴾﴾** [الرُّوم: ٤-٥].

وكان رسول الله ﷺ يقوم بنفسه بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى، فكان إذا وافى الموسم، وقام بين الناس في عكاظ ومجنة وذبي المجاز لتبليغ الرسالة لم يكن يبشرهم بالجنة فحسب، بل يقول لهم بكل صراحة: «أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم فإذا تمتم كنتم ملوكًا في الجنة»^(١).

(١) لم أقف على الجزء الأخير من الحديث وقوله «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» ورد أكثر من حديث منها ما رواه أحمد (٣٧٦/٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٢/٦): رجاله رجال الصحيح ومنها ما رواه الطبراني في «الكبير» (٣٤٣/٢٠) عن مدركة بن الحارث قال: حججت مع أبي فلما نزلنا مني إذا نحن بجماعة، فقلت لأبي: ما هذه الجماعة؟ قال: هذا الصابئ. فإذا رسول الله ﷺ يقول «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله»، قال الهيثمي في «المجمع» (٢١/٦): رجاله رجال الصحيح.

وقال لخباب رضي الله عنه: «وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله» زاد بيان الراوي: «والذئب على غنمه». وفي رواية: «ولكنكم تستعجلون»^(١).

الضوائد والآثار الإيمانية:

١ - دلت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة الصحيحة على أن العقابة للمتقين في الدنيا والآخرة.

قَالَ الْجَالِي: ﴿وَالْعَقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [التَّحْصُص: ٨٣].

وَقَالَ الْجَالِي: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [جَاوِز: ٥١]

وَقَالَ الْجَالِي: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَ بَنَاتِي أَنَا وَرُسُلِي﴾ [الْمَجَالِيز: ٢١].

وَقَالَ الْجَالِي: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصَّفْح: ٩].

قال الألباني رحمته الله: تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، وليس كذلك، فالذي تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق، كما أشار إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ»، فقالت عائشة: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصَّفْح: ٩] أن ذلك تامًا. قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله»؛ الحديث^(٢).

(١) باختصار من «الرحيق المختوم» (١٤٥، ١٤٦)، والحديث تقدم تخريجه.

(٢) رواه مسلم (٣٢ / ١٦) الفتنة وأشرط الساعة. والحاكم (٤ / ٤٤٦، ٤٤٧، ٥٤٩).

وقد وردت أحاديث أخرى توضح مبلغ ظهور الإسلام، ومدى انتشاره بحيث لا يدع مجالاً للشك في أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه، وها أنا أسوق ما تيسر من هذه الأحاديث عسى أن تكون سبباً لشحذ همم العاملين للإسلام ومحجة على اليائسين المتواكلين.

الأول: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها» الحديث^(١).

الثاني: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزٍ عزيز، أو بذلٍ ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذُلًّا يذل به الكفر»^(٢).

الثالث: عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتاباً، فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً أفسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: «مدينة هرقل تفتح أولاً - يعني القسطنطينية-»^(٣). قال الألباني: ورومية هي روما كما في معجم البلدان، وهي عاصمة إيطاليا اليوم، وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ، وسيتحقق الفتح الثاني - بإذن الله تعالى - ولابد، ولتعلمن نبأه بعد حين،

(١) رواه مسلم (١٣/١٦) الفتن وأشراف الساعة. والترمذي (٢٢/٩) الفتن. وأبو داود [٤٢٣٢] «الفتن والملاحم».

(٢) رواه أحمد (١٠٣/٤). والحاكم (٤٣٠/٤، ٤٣١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان [١٦٣١] «موارد»، وصححه الألباني على شرط مسلم في «تحذير الساجد» [ص ١١٩] وفي «الصحيحة» رقم ٣ (٧/١/١).

(٣) رواه أحمد (١٧٦/٢)، والدارمي (١٢٦/١)، والحاكم (٥٠٨/٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي والألباني في «الصحيحة» رقم (٨/١/١).

ولا شك أيضًا أن تحقق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة، وهذا مما يبشرنا به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله في الحديث.

الرابع: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة - ثم سكت-»^(١) اهـ. مختصرًا^(٢).

٢- قد ينتصر الباطل في جولة من الجولات لتقصير أهل الحق في العمل به، والقيام بواجبهم، كما قال أبو سفيان بعد أن حدثت الهزيمة للمسلمين يوم أحد، لمخالفة بعضهم لأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. إلا أن العاقبة والنتيجة في هذه الجولة التي يظهر فيها الباطل تختلف، فلا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، وهذا ما أجاب به عمر رضي الله عنه أبا سفيان بن حرب بقوله: قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار^(٣).

فمن سقط من صفوف المسلمين في المعركة مع الكافرين فهو شهيد يُساق إلى جنة الله، ومن سقط من صفوف الكافرين إلى الجحيم والعذاب الأليم، فانظر كم بين الفريقين، ثم الجولة النهائية لا بد أن تكون للمؤمنين كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿وَأَنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصَّافَاتِ: ١٧٣]، فالقضية هل نحن جند مخلصون لله عَزَّ وَجَلَّ؟ هذه هي القضية. فإن كنا كذلك فلا بد أن يتحقق فينا موعود الله عَزَّ وَجَلَّ، وكما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [الْحَجَرِ: ٥٥].

(١) رواه أحمد (٢٧٣/٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٨٩/٥) رجاله ثقات، وهو في «الصحيحة» رقم [٥].

(٢) باختصار من «السلسلة الصحيحة» لمحدث العصر الألباني ونفع سائر الناس بعلمه (١٠٦-١).

(٣) سيأتي تخرجه - إن شاء الله - في غزوة أحد.

فليبشر شباب الصحوة المباركة بهذه النصوص الواضحة التي تبشر بالنصر والتمكين، رغم أنف المعاندين والمكذابين واليهود والنصارى ومن والاهم من المنافقين. وليبشر أعداء الله عزَّ وجلَّ الذين يصدون عن سبيله ويبغونها عوجًا بالخسار والبوار في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

قَالَ تَجَالِي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].



obbeikandi.com

الوقائع العظام والأحداث الجسام

في هذه الفترة من دعوة النبي ﷺ

بعد أن بينا بحمد الله تعالى السمات العامة لهذه الفترة المباركة، وحتى لا نحرم من صحبة أنفاس النبي ﷺ الطاهرة، نلقي بعض الضوء على أهم أحداث هذه الفترة، ونعيش مع النبي ﷺ في آلامه، وأحزانه.

ونلخصها في الآتي:

- ١- إسلام حمزة بن عبد المطلب.
 - ٢- هجرة الحبشة الأولى.
 - ٣- إسلام عمر بن الخطاب.
 - ٤- هجرة الحبشة الثانية.
 - ٥- الصحيفة الظالمة والمقاطعة العامة.
 - ٦- وفاة خديجة رضي الله عنها وأبي طالب عم النبي ﷺ.
 - ٧- رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف.
 - ٨- الإسراء والمعراج.
 - ٩- بيعة العقبة الأولى.
 - ١٠- بيعة العقبة الثانية.
- ولنشرع في بيان هذه الأحداث العظام، والله سبحانه والمستعان وعليه التكلان.

obeikandi.com

١ - إسلام حمزة بن عبد المطلب

إن الأفق المتلبد بالسحب قد يتولد منه برق يضيء، فقد كان هذا الإيذاء والاستهزاء بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبباً لإسلام حمزة عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخوه من الرضاعة. فقد روى في سبب إسلامه أن جارية عيرته بإيذاء أبي جهل لابن أخيه، فتوجه إليه وغاضبه وسبه، وقال: كيف تسب محمداً وأنا على دينه، فشججه شجة منكرة، فكان إسلامه في بداية الأمر أنفة، ثم شرح الله صدره بنور اليقين، حتى صار من أفاضل المؤمنين^(١).

وعن محمد بن كعب القرظي قال: كان إسلام حمزة حَمِيْلُهُ حمية، وكان يخرج من الحرم فيصطاد، فإذا رجع مرَّ بمجلس قريش، وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة، فيمر بهم فيقول: رميت كذا وكذا وصنعت كذا وكذا، ثم ينطلق إلى منزله، فأقبل من رميه ذات يوم فلقيته امرأة فقالت: ماذا لقي ابن أخيك من أبي جهل شتمه وتناوله وفعل وفعل. فقال: هل رآه أحد؟ قالت: إي والله لقد رآه الناس، فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة، فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم فاتكأ على قوسه وقال: رميت كذا وكذا، وفعلت كذا وكذا، ثم جمع يديه بالقوس فضرب بها بين أذني أبي جهل فدق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس، وأخرى بالسيف، أشهد أنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه جاء بالحق من عند الله، قالوا: يا أبا عمارة إنه سب آلهتنا وإن كنت أنت وأنت أفضل منه ما أقرناك، وذلك وما كنت يا أبا عمارة فاحشاً^(٢).

(١) رواها البيهقي في «الدلائل» قال: حدثنا أبو عبد الله الحافظ إملاءً قال: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال: حدثنا أحمد بن عبد الجبار قال: حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني رجل من أسلم وكان واعية (٢/٢١٣)، ورواها ابن إسحاق (١/٣٠٤) ونقلها ابن كثير (٣/٣٣) «البداية والنهاية».

(٢) قال الهيثمي: رواه الطبراني مرسلاً ورجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٩/٢٦١) باب ما جاء في فضل حمزة.

٢- هجرة الحبشة الأولى

أجمع أكثر العلماء على أنها كانت في رجب سنة خمس من البعثة، وكانوا اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، ورئيسهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ومعه السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان في هذا الفوج أبو سلمة وأم سلمة، وأبو سبرة بن أبي رهم وزوجه أم كلثوم، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلي، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهيل، وعبد الرحمن ابن عوف، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وسهيل ابن البيضاء، والزيير بن العوام وجلهم من قريش، ولما انتهوا إلى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم إلى مقصدهم، فأقاموا آمنين من أذى يلحق بهم من المشركين، ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا القليل.

٣- إسلام عمر بن الخطاب

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر»^(١).

وكان إسلام عمر رضي الله عنه بعد هجرة الحبشة الأولى، ورجح بعض العلماء أن هذا كان من أسباب عودة المهاجرين الهجرة الأولى إلى مكة.

أما قصة إسلامه^(٢): عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر لشيء قط يقول: إني لأظنه كذا إلا كان كما يظن. بينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل فقال عمر: لقد

(١) رواه البخاري (٢١٥/٧) مناقب الأنصار.

(٢) اشتهر في كتب السيرة رواية أسلم مولي عمر في قصة إسلام عمر رضي الله عنه ودخوله على أخته وقراءته القرآن ثم ذهابه إلى دار الأرقم في قصة طويلة مشهورة قال الحافظ نور الدين الهيثمي: رواه البزار وفيه أسامة بن زيد بن أسلم وهو ضعيف (مجمع الزوائد: ٦٥/٩).

قلت وفيه أيضًا: إسحاق بن إبراهيم الحنيني، وقد ذكر البزار أنه تفرد به وقال فيه الحافظ: إسحاق بن إبراهيم الحنيني بضم المهملة ونونين مصغراً أبو يعقوب المدني ضعيف مات سنة ست عشرة من التاسعة (تقريب التهذيب: ٥٥).

والقصة ذكرها البيهقي في «الدلائل» مسندة (٢/٢١٦) وقال ابن إسحاق: وكان إسلام عمر فيما بلغني، ابن هشام (١/٣٥٥).

أخطأت ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان هذا كاهنهم على الرجل، فدعى له فقال له ذلك. فقال: ما رأيت كالיום استقبل به رجل مسلم. قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرني. قال: كنت كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت: ألم تر الجنة وإيلاسها، وبأسها من بعد إنكاسها، ولحوق القلاص وأحلاسها. قال عمر: بينما أنا نائم عند أهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: لا إله إلا أنت. فقممت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبي^(١).

قال الحافظ: لمح المصنف بإيراد هذه القصة في «باب إسلام عمر» بما جاء عن عائشة وطلحة عن عمر، من أن هذه القصة كانت سبب إسلامه^(٢).

ومن أسباب إسلامه دعوة النبي ﷺ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل، وأبو بعمر بن الخطاب، قال: وكان أحبهما إليه عمر»^(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لما أسلم عمر اجتمع الناس عند داره، وقالوا: صبأ عمر، وأنا غلام فوق ظهر بيتي، فجاء رجل عليه قباء من ديباج فقال: قد صبأ عمر فما

(١) رواه البخاري (٧/٢١٥، ٢١٦) مناقب الأنصار.

قوله: «وإيلاسها» المراد به اليأس ضد الرجاء.

قوله: «وبأسها من بعد إنكاسها» قال ابن فارس معناه: أنها يؤست من استراق السمع بعد أن كانت قد ألفتته.

قوله: «ولحوقها بالقلاص وأحلاسها» القلاص جمع قلوص وهي الفتية من النياق.

والأحلاس: جمع حلس وهو ما يوضع على ظهر الإبل تحت الرحل.

قوله: «يا جليح» معناه: الوقح المكافح بالعداوة.

قوله: «رجل فصيح» من الفصاحة. باختصار من «الفتح» (٧/٢١٩، ٢٢٠).

(٢) «فتح الباري» (٧/٢٢٠).

(٣) رواه الترمذي (١٣، ١٤٣) المناقب، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من حديث ابن عمر، وصححه الألباني رقم [٢٩٠٧] «صحيح الترمذي».

ذاك؟ فأنا له جار. قال: فرأيت الناس تصدعوا عنه. فقلت: من هذا؟ قالوا: العاص بن وائل^(١).

وعن ابن عمر قال: لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم تعلم قريش بإسلامه فقال: أي أهل مكة أنشأ للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحي. فخرج إليه وأنا معه أتبع أثره أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه فقال: يا جميل، إني قد أسلمت. قال: فوالله ما رد عليه كلمة حتى قام عامداً إلى المسجد، فنادى أندية قريش فقال: يا معشر قريش. إن ابن الخطاب صباً.

فقال عمر: كذب، ولكنني أسلمت وآمنت بالله وصدقت رسوله فثاوروه، فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رؤوسهم حتى فتر عمر وجلس، فقاموا على رأسه، فقال عمر: افعلوا ما بدا لكم، فوالله لو كنا ثلاث مئة رجل لقد تركتموها لنا أو تركناها لكم. فبينما هم كذلك قيام عليه، إذ جاء رجل عليه حلة حرير وقميص قومي، فقال: ما بالكم؟ فقالوا: إن ابن الخطاب قد صبا، قال: فمه، امرؤ اختار ديناً لنفسه أفتظنون أن بني عدي تسلم إليكم صاحبهم؟ قال: فكأنما كانوا ثوباً انكشف عنه، فقلت له بعد بالمدينة؟ يا أبت من الرجل الذي رد عنك القوم يؤمئذ؟ فقال: يا بني، ذاك العاص بن وائل^(٢).

٤- هجرة الحبشة الثانية

ظن المهاجرون الكرام رضي الله عنهم أن الاضطهاد الواقع على المسلمين بمكة قد خفت وطأته، واشتدت عليهم الغربة فعادوا فلم يجدوا الأخبار التي وصلتهم صادقة، وكان الأمر أشد على المسلمين، فلم يجد النبي صلى الله عليه وسلم بداً من أن يشير عليهم بالهجرة مرة ثانية.

(١) رواه البخاري (٢١٥/٧) مناقب الأنصار.

(٢) رواه ابن حبان (٣٠٢/١٥، ٣٠٣) رقم [٦٨٧٩] وعبد الله بن أحمد في زياداته على فضائل الصحابة [٣٧٢] وقال الهيثمي في المجمع: رواه البزار والطبراني باختصار ورجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس. وقال شعيب الأرنؤوط في «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»: إسناد قوي ورواه مختصراً الحاكم (٨٥/٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

عن أم سلمة بنتت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير الجار النجاشي، أمنا على ديننا وعبدنا والله تعالى لا نؤذي ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقتهم بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص فأمرهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلم النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم. قال: فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقتهم بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلم النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي، فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم عليهم، فهو أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقتهم حوله: صدقًا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاه الله إذا لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك

منعتهم منها وأحسنت جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألمهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟.

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. قالت: فعدد عليه أمور الإسلام. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمتنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فغدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا تستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على ما سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فقرأه علي، فقرأ عليه صدرًا من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، ويكت أساقفته حتى أخضلوا مصافحهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون. قالت: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص، والله لأتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم، قالت: فقال له عبدالله بن

أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد قال: ثم غدا عليه من الغد فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا فأرسل إليهم فسألهم عما يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائنًا في ذلك ما هو كائن، قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقول في عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: ف ضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودًا ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود^(١) الحديث.

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - قال الجزائري: إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها فيما يأتي: مشروعية الهجرة وهي الانتقال من بلد الكفر حيث تعذر على العبد أن يعبد الله إلى دار يتمكن فيها من عبادة الله تعالى بدون تعذيب.

بيان خطر الشائعات، إذا بها رجع المهاجرون ولاقوا ما لاقوا من العذاب حتى اضطروا إلى الهجرة مرة ثانية^(٢).

٢ - هذه الحادثة مصداق لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وفيها لطف الله عزَّ وجلَّ بأوليائه ودفاعه عنهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق (٢/٨٧، ٨٨) من «سيرة ابن هشام مع الروض» ومن طريقه أحمد (١٧٤٠ شاکر)، وابن خزيمة [٢٢٦٠] وصححه، وكذا أبو نعيم في «الحلية» (١/١١٥، ١١٦)، والبيهقي في الاعتقاد [١١]، وقال العلامة أحمد شاکر: إسناده صحيح وصح إسناده كذلك الألباني في تحقيق فقه السيرة [١٣٤] وله شاهد عن ابن مسعود في «مسند أحمد» (٤٤٠٠ شاکر).

(٢) «هذا الحبيب يا محب» [١٢٢].

يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿ [الْحَجَّ: ٣٨]، وفيها كذلك مصداق لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الْأَنْفَالُ: ٣٦]. وفيها كذلك عاقبة الصدق، وكيف أن جعفر بن أبي طالب جويلته عنه ومن معه صدقوا مع النجاشي ولم يكتموا شيئاً من عقيدتهم فكانت العاقبة أحسن العواقب وأحمدها.

٣- وفي القصة كذلك فضل النجاشي، وفيه كذلك ما رواه البخاري عن جابر جويلته عنه: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة»^(١). والنجاشي لقب من ملك الحبشة.

٥- الصحيفة الظالمة والمقاطعة العامة

قال الإمام محمد بن يوسف الصالح الشامي: قال أبو الأسود والزهري وموسى بن عقبة وابن إسحاق: إن قريشاً لما رأت أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نزلوا بلداً أصابوا فيه أمناً وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم وكان رجلاً ذا شكيمة لا يُرام ما وراء ظهره امتنع به أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبحمزة حتى عازوا قريشاً فكان هو وحمزة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، فأجمعوا رأيهم واتفق رأيهم على قتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا فقالوا لقومه: خذوا منا ديةً مضاعفة وليقتله رجل من غير قريش وتريحون أنفسكم، فأبى قومه بنو هاشم من ذلك، وظاهرهم بنو المطلب بن عبد مناف.

فلما عرفت قريش أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد منعه قومه، فأجمع المشركون من قريش على منابذتهم وإخراجهم من مكة إلى الشعب، وأجمعوا واثمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٣٠) مناقب الأنصار.

يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

فلما اجتمعوا لذلك كتبوا صحيفة ثم تعادوا وتعاقدوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وقطعوا عنهم الأسواق، ولم يتركوا طعاماً ولا إداماً ولا بيعاً إلا بادروا إليه واشتروه دونهم. فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبة مؤمنهم وكافرهم، المؤمن ديناً والكافر حميةً. وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهرهم.

قال ابن إسحاق وغيره: فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا لا يصل إليهم شئ إلا سراً مستخفياً به من أراد صلته من قريش^(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: ثم سعى في نقض تلك الصحيفة أقوام من قريش، فكان القائم في أمر ذلك هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن مالك ابن حِسل بن عامر بن لؤي، مشى في ذلك إلى مطعم ابن عدي وجماعة من قريش فأجابوه إلى ذلك، وأخبر رسول الله ﷺ قومه أن الله قد أرسل على تلك الصحيفة الأرضة فأكلت جميع ما فيها إلا ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، فكان كذلك، ثم رجع بنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة، وحصل الصلح برغم من أبي جهل عمرو بن هشام^(٢).

والسؤال الآن: كيف صبر بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم على هذه المحنة الشديدة والبلاء المبين؟

وجوابه: والله أعلى وأعلم وأعز وأحكم، أن صبر المشركين كان من أجل العصبية وحمية القرابة والرحم، وإبائ الذل الذي كان يتلبس بهم لو أنهم خلوا بين محمد ﷺ

(١) باختصار من «سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» (٢/٥٠٢، ٥٠٤) ط. مجمع البحوث الإسلامية.

(٢) «الفصول في اختصار سيرة الرسول» ﷺ للحافظ ابن كثير [٩٠، ٩١] تحقيق وتعليق محمد

العبد الخطراوي ومحبي الدين مستو.

ومشركي قريش من غير بني هاشم وبني المطلب يقتلونهم ويفتكون به، بقطع النظر عن العقيدة والدين^(١).

أما المسلمون فلا أسباب عدة:

١- الإيمان بالله الذي خالطت بشاشته قلوبهم: فلا يباليون ما ينال أجسادهم من إيذاء، ما دام هذا الإيذاء والتعذيب سبباً من أسباب رحمة الله وفضله، وقد سأل هرقل أبا سفيان بن حرب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا. فقال: كذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب»^(٢).

٢- وجود القيادة المؤمنة الواعية المتصفة بالفضائل: والخالية من القصور والردائل، ولا شك في أن من أهم أسباب الصبر والنصر وجود مثل هذه القيادة. كما قال ابن كثير: رفعت قريش خبيباً رحمته الله على الخشبة عند صلبه ونادته: أتحب أن محمداً مكانك وأنت مُعافاً في أهلِكَ ومالك؟ قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه، فضحكوا منه.

(١) روى ابن إسحاق الشعر الذي ذكره أبو طالب وقد صرح فيه أنه غير مسلم رسول الله ﷺ ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه فقال:

وَمَا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَأَ وَدَّ فِيهِمْ
وَقَدْ صَارْحُونَا بِالْعَدَاوَةِ وَالْأَذَى
وَقَدْ حَالَمُوا قَوْمًا عَلَيْنَا أَظَنَّةً
صَبِرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمَرَاءِ سَمِحَةٍ
وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي
قِيَامًا مَعًا مُسْتَقْبِلِينَ رِتَاجَةً
وَقَدْ قَطَعُوا كَلَّ الْعُرَى وَالْوَسَائِلِ
وَقَدْ طَاعُوا أَمْرَ الْعَدُوِّ الْمَزَائِلِ
يَعْضُونَ غَيْظًا خَلَفْنَا بِالْأَنَامِلِ
وَأَبْيَضَ عَضْبٌ مِنْ تَرَاثِ الْمَقَاوِلِ
وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ
بِدِيَّ حَيْثُ يَقْضِي حَلْفُهُ كُلُّ نَافِلِهِ

شرح «سيرة ابن هشام» «الروض الأنف»، ١٣/٢.

(٢) الحديث رواه البخاري (١/٤٢، ٤٣) بدء الوحي.

وفي ذلك يقول الشاعر:

أَسْرَتْ قُرَيْشٌ مُسْلِمًا فَمَضَى بِلَا وَجَلٍ إِلَى السِّيَافِ
سَأَلُوهُ هَلْ يُرْضِيكَ أَنْكَ سَأَلْتُمْ وَلَكَ النَّبِيُّ فِدَى مَنْ الْإِتْلَافِ
فَأَجَابَ كَلَا لَا سَلِمْتُ مِنَ الرَّدَى وَيُصَابُ أَنْفُ مُحَمَّدٍ بِرُعَافِ

وكان من أثر حبهم لرسول الله ﷺ أنهم كانوا يرضون أن تندق أعناقهم ولا يخذش له ظفر.

٣- الشعور بالمسئولية: قال صفي الرحمن المباركفوري: فكان الصحابة يشعرون شعورًا تامًا ما على كواهل البشر من المسئولية الفخمة الضخمة، وأن هذه المسئولية لا يمكن عنها الحياد والانحراف بحال، فالعواقب التي تترتب على الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضررًا عما هم فيه من الاضطهاد، وأن الخسارة التي تلحقهم وتلحق البشرية جمعاء بعد هذا الفرار لا يقاس بحال على المتاعب التي كانوا يواجهونها نتيجة هذا التحمل^(١).

٤- تبشير القرآن والنبى ﷺ لهم برحمة الله ورضوانه وعذاب الكافرين ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]. وتبشير الصحابة كذلك بالنصر والتمكين في الدنيا وهلاك الكافرين والمكذبين.

لاشك أن هذه العوامل الأربعة كانت من أقوى العوامل على الصبر والثبات.

٦- وفاة أبي طالب وخديجة رحمتهما الله

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد فتباعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها، وبهلك عمه أبي طالب وكان له عضدًا وحرزًا في أمره ومنعةً وناصرًا على

(١) «الرحيق المختوم» [١٤٣].

قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسوله الله ﷺ الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب^(١).

عن المسيب أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: «أي عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب. فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك» فنزلت: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهَا مَلَأَتْ أَعْيُنَ النَّاسِ عَذَابًا وَمَأْتًا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [التوبة: ١١٣]؛ ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الفصل: ٥٦]^(٢).

وعن العباس بن عبد المطلب قال للنبي ﷺ: «ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟» قال: «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»^(٣).

ورجح ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر أن وفاة خديجة رضي الله عنها كان بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو ثلاثة^(٤)، وكان في رمضان من السنة العاشرة من البعثة النبوية، ولها خمس وستون سنة. وفي شوال من هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة وكانت ممن أسلم قديماً، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان زوجها السكران بن عمرو، مات بأرض الحبشة أو بعد الرجوع إلى مكة.

(١) «سيرة ابن هشام» مع «الروض الأنف» (١٦٦/٢).

(٢) رواه مسلم (٣١٤/١) «الإيمان».

(٣) رواه البخاري (٢٣٣/٧) «مناقب الأنصار»، ومسلم (٨٤/٣) «الإيمان».

(٤) ورجح ابن كثير أنه كان بينها ثلاثة أيام انظر: «الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ» [٩٢].

٧- خروج المصطفى ﷺ إلى الطائف

قال ابن إسحاق: ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عزَّ وجلَّ، فخرج إليهم وحده (١).

عن عروة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟» فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً» (٢).

قال الحافظ ما ملخصه: كان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطائف من ثقيف وقد روى عبد بن حميد في «تفسيره» من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، قال: نزلت في عتبة بن ربيعة وابن عبد ياليل الثقفي، ومن طريق قتادة قال: هما الوليد بن المغيرة، وعروة ابن مسعود.

وقد ذكر موسى بن عقبة وابن إسحاق أن كنانة بن عبد ياليل وفد مع وفد الطائف سنة عشر فأسلموا، وذكره ابن عبد البر في الصحابة لذلك، لكن ذكر المديني أن الوفد

(١) «سيرة ابن هشام» مع «الروض الأنف» (١٧٢/٢).

(٢) رواه البخاري (٣٦٠/٦) «بدء الخلق»، ومسلم (١٥٤/١٢) «الجهاد».

أسلموا إلا كنانة فخرج إلى الروم ومات بعدها بعد ذلك، والله أعلم. وذكر موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مات أبو طالب توجه إلى الطائف رجاء أن يؤوه، فعمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف وهم سادتهم، وهم إخوة عبد ياليل وحبيب ومسعود بنو عمرو، فعرض عليهم نفسه، وشكى إليهم ما انتهك منه قومه، فردوا عليه أقبح رد، وكذا ذكره ابن إسحاق بغير إسناد مطولاً وذكر ابن سعد أن ذلك كان في شوال سنة عشرة من المبعث، وأنه كان بعد موت أبي طالب وخديجة (١).

٨- الإسراء والمعراج

قال الجزائري حَفَظَهُ اللَّهُ: كان مكافأة ربانية على ما لاقاه الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أتراح وآلام وأحزان، إذا كان بعد حصار دام ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، وما لاقاه في أثنائه من رجوع وحرمان، إنه كان بعد فقد الناصر الحميم، وفقد خديجة أم المؤمنين، إنه كان بعد خيبة الأمل في ثقيف، وما ناله من سفهائها وصبيانها وعبيدها.

بعد هذه الآلام كافأ الحبيب فرفعه إليه، وقربه وأدناه، وخلع عليه من حِلل الرضا ما أنساه كل ما كان قد لاقاه من حزن وألم ونصب وتعب، وما قد يلاقيه في سبيل إبلاغ رسالته ونشر دعوته، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما ذكر الله الذاكرون، وما غفل عن ذكره الغافلون (٢).

وما أسعدنا في هذا الفصل بالآيات والأحاديث الصحيحة في البخاري ومسلم، فلن ندعها لروايات أهل السير.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الأنبياء: ١].

(١) «فتح الباري» (٦/٣٦٣)، وقرن الثعالبي هي ميقات أهل نجد ويقال لها قرن المنازل أيضاً.

(٢) «هذا الحبيب يا محب» [١٣٥].

قال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: دلت هذه الآية على ثبوت الإسراء، وهو سير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيت المقدس ليلاً، وأما العروج إلى السموات فهذه الآية لا تدل عليه، ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم^(١).

قال القاضي عياض: وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسرائ بالجسد وفي اليقظة وهذا هو الحق. قال القاضي عياض: والصحيح - إن شاء الله - أنه إسرائ بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة^(٢)، إذ لو كان مناماً لقال بروج عبده ولم يقل بعبده، وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، ولو كان مناماً لما كان فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه فيه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتنوا به، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته^(٣).

ولنذكر رواية مسلم لقصة الإسراء والمعراج لأنها أتم من رواية البخاري، حيث أشارت إلى قصة الإسراء والمعراج، وأما رواية البخاري فاقتصر على قصة المعراج.

عن أنس بن مالك أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَتَيْتُ بِالْبُرَاقِ - وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ - قَالَ: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ

(١) بتصرف من محاسن التأويل (١٠/١٨٧، ١٨٨).

(٢) الصحيح عند وجود نص أو قرينة تدل على أن الظاهر غير مراد.

(٣) «الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى» (١/١٨٩).

ومما يدل على أنه كان يقظة كذلك ما رواه البخاري (٧/٢٣٦) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته».

فلو أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرهم بأنها رؤيا رآها لما اختبروه بالسؤال عن آياته وعلاماته وهذه أيضاً معجزة ثانية لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَالَ: فَرَبَطْتُهُ بِالْحُلُقَةِ الَّتِي يَرِبُطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ حَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَأَخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِأَدَمَ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنِي الْحَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ.

قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِأَدْرِيسَ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [بَرَاءة: ٥٧].

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمُعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقَلَالِ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسُونَ صَلَاةً. قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قَالَ: فَارْجِعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنِّي أُمَّتِي. فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا فَارْجِعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. قَالَ: فَلَمْ أَرْجِعْ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُمْ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةً، قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ»^(١).

قال ابن القيم رحمه الله: واختلف الصحابة هل رأى ربه تلك الليلة أم لا؛ فصح عن

ابن عباس أنه رأى ربه، وصح عنه أنه قال: رآه بفؤاده^(٢).

(١) رواه مسلم (٢/٢١٠، ٢١٥) الإبان، والبخاري (٧/٢٤٤/٢٤٢) مناقب الأنصار.

(٢) رواه مسلم (٧/٣) الإبان، والترمذي (١٢/١٧٢) التفسير.

وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقالوا: إن قوله ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣) عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿[التَّجْوِيد: ١٣، ١٤] إنما هو جبريل (١).

وصح عن أبي ذر أنه سأله: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه» أى حال بيني وبين رؤيته النور كما في اللفظ الآخر: «رأيت نوراً» (٢). وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره (٣).

قال ابن القيم: فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عزَّ وَجَلَّ من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم، واستضرارهم عليه وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس فجلاه الله له حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئاً، وأخبرهم عن غيرهم في مسراه ورجوعه وأخبرهم عن وقت قدومها وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال، فلما يزدحم ذلك إلا نفوراً، وأبى الظالمون إلا كفوراً (٤).

الفوائد والآثار الإلهامية:

١- قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ [الْبَيِّنَات: ١] فيه فضل المسجد الأقصى.

قال القاسمي: «والأقصا» بمعنى الأبعد، سمى بذلك لبعده عن مكة، وقوله: ﴿الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ أى جوانبه بركات الدين والدنيا، لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيمهم ومنهى الزوع والشار، فاكتنفته البركة الإلهية الركة الإلهية من

(١) رواه البخاري (٤٧٢ / ٨) التفسير، ومسلم (٧ / ٣) الإيمان.

قال أبو هريرة: رأى جبريل وعن عائشة رضي الله عنها قالت: زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.

(٢) رواه مسلم (١٢ / ٣) الإيمان، والترمذي (١٧٢ / ١٢) التفسير.

(٣) «زاد المعاد» (٣ / ٣٦، ٣٧).

(٤) السابق (٣ / ٣٨، ٣٩).

نواحيه كلها، فبركته إذن مضاعفة، لكونه في أرضٍ مباركة، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى، والمساجد بيوت الله، ولكونه متعبد الأنبياء، ومقامهم ومهبط وحيه عليهم، فبورك منه ببركتهم ويؤمنهم أيضاً.

وقد قيل في خصائص (الأقصى) أنه متعبد الأنبياء السابقين، ومسرى خاتم النبيين، ومعراجة إلى السماوات العلى، والمشهد الأسمى، بيت نوه الله به في الآيات المفصلة، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة لأجله أمسك الله الشمس على يوشع أن تغرب ليتيسر فتحه على من وعدوا به ويقرب، وهو قبلة الصلاة في الملتين وفي صدر الإسلام بعد الهجرتين، وهو أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ولا تعقد الخناصر بعد الوطنين إلا عليه. انتهى.

ومن فضائله ما رواه الإمام أحمد والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة: سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه. وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه. وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد - يعني بيت المقدس - خرج من خطيبته كيوم ولدته أمه». قال النبي ﷺ: «ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك»^(١).

فنسال الله تعالى أن يطهره من أنجاس اليهود، وأن ترفرف راية الإسلام مرة ثانية على القدس وغيرها من بلاد المسلمين، وأن يمتنعنا الله عزَّ وجلَّ بالصلاة فيه كما حدث في عهد صلاح الدين، حيث خطب إمام الجمعة في أول صلاة تقام فيه بعد عودته، وابتدأ خطبته بقوله: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

(١) «محاسن التأويل» (١٠/١٨٥).

والحديث رواه أحمد (١٧٦/٢) رقم [٦٦٤٤ شاکر]، والنسائي (٣٤/٢) المساجد: باب فضل المسجد الأقصى، وابن ماجه [١٤٠٨]، وابن خزيمة [٦٠٨] صحيح ابن خزيمة وقال العلامة أحمد شاکر: إسناده صحيح، والحاكم (٣١، ٣٠ / ١) الإبان، وقال: صحيح ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح النسائي وابن ماجه.

فنسأل الله كما قطع دابر الذين احتلوه في المرة الأولى أن يقطع دابرهم في المرة الثانية، وأن يستعملنا في ذلك، إنه على كل شئ قدير، وبالإجابة جدير.

٢- قال الغزالي تحت عنوان **حكمة الإسراء**: ذلك.. والله عزَّ وجلَّ يتيح لرسله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته، حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستناداً إليه، إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة، ويهاجمون سلطانهم القائم.

فقبل أن يرسل الله موسى شاء أن يريه عجائب قدرته، فأمره أن يلقي عصاه: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى ﴿١١﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿١٢﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿١٣﴾ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَى ﴿١٤﴾ لِزَيْبِكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ [طه: ١٩، ٢٣].

فلما ملأ قلبه إعجاباً بمشاهدة هذه الآيات الكبرى قال له بعد ذلك: ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه: ٢٤].

وقد علمت أن ثمرة الإسراء والمعراج إطلاع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى، وربما نقول: إن ذلك حدث بعد الإرسال إليه بقريب من اثني عشر عاماً على عكس ما وقع لموسى، وهذا حق، وسر ما أسلفنا بيانه من أن الخوارق في سير المرسلين قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة، فهي تدعيم لجانبهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء، وسيرة محمد ﷺ فوق هذا المستوى، فقد تكفل القرآن الكريم بإقناع أولى النهي من أول يوم وجاءت الخوارق في طريق الرسول ضرب من التكريم لشخصه، والإيناس له، غير مُعكرة ولا مُعطلة للمنهج العقلي العادي الذي اشترعه القرآن.

وفي قصة الإسراء والمعراج تُلمح أواصر القربى بين الأنبياء كافة، وهذا المعنى من أصول الإسلام: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ؕ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ؕ ءَامَنَ بِاللَّهِ

وَمَلَكِيَّهِ وَكُتِبَ لَهُ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴿ [البقرة: ٢٨٥]، والتحيات المتبادلة بين النبي وأخوته السابقين توثق هذه الأصرة^(١).

٣- قال صفي الرحمن المباركفوري: يرى القارئ في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحد فقط، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، فربما يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط، والأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس، لأن اليهود سيُعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية لما ارتكبوا من الجرائم التي لم يبق معها مجال لبقائهم على هذا المنصب، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلاً إلى رسوله ﷺ، ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة، من أمة ملأت تاريخها بالعدو والباطل والظلم والعدوان، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات، ولا يزال رسولها يتمتع بوحى القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم.

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة، والرسول يطوف في جبال مكة مطروداً بين الناس، هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى، وهي أن دوراً من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك إلى النهاية والتهام، وسيبدأ دور آخر يختلف عن الأول في مجراه، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعيد شديد بالنسبة إلى المشركين: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الأنبياء: ١٦].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الأنبياء: ١٧].

ويجنب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التي يبتنى عليها مجتمعهم الإسلامي، كأنهم قد أووا إلى الأرض^(٢)، تملكوا فيها أمورهم من جميع النواحي، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رحى المجتمع، ففيه إشارة إلى أن

(١) باختصار من «فقه السيرة» (١٤٣، ١٤٤).

(٢) الأصح في المعنى: «إلى أرض».

الرسول الله ﷺ سيجد ملجأً ومأمنًا يستقر فيه أمره، ويصير مركزًا لبث دعوته في أرجاء الدنيا، هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة يتصل ببحثنا فأثرنا ذكره، ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبين. والله أعلم^(١).

٤- قال الحافظ: في فوائد حديث الإسراء والمعراج ما ملخصه: وفي حديث من الفوائد غير ما تقدم: أن للسماء أبوابًا حقيقية وحفظة موكلين بها، وفيه إثبات الاستئذان وأنه ينبغي لمن يستأذن أن يقول: أنا فلان، ولا يقتصر علىّ أنا لأنه يُنافي مطلوب الاستفهام، وأن المار يُسلم على القاعد، وإن كان المار أفضل من القاعد، وفيه استحباب تلقي أهل الفضل بالبشر والترحيب والثناء والدعاء وجواز مدح الإنسان المأمون عليه الافتنان في وجهه، وفيه جواز الاستناد إلى القبلة بالظهر وغيره مأخوذ من استناد إبراهيم إلى البيت المعمور، وهو كالكعبة في أنه قبلة من كل جهة، وفي جواز نسخ الحكم قبل وقوع الفعل، وفيه فضل السير بالليل على السير بالنهار لما وقع من الإسراء بالليل، ولذلك كان أكثر عبادته ﷺ بالليل، وكان أكثر سفره ﷺ بالليل، وقال ﷺ: «عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل» وفيه أن التجربة أقوى في تحصل المطلوب من المعرفة الكثيرة، ويستفاد ذلك من قول موسى ﷺ للنبي ﷺ أنه عالج الناس قبله وجرهم، ويستفاد منه تحكيم العادة، والتنبيه بالأعلى على الأدنى، لأن من سلف من الأمم كانوا أقوى أبدانًا من هذه الأمة، وقد قال موسى إنه عاجلهم على أقل من ذلك فما وافقوه، وأشار إلى ذلك ابن أبي جمرة، قال: ويستفاد منه أن مقام الخلة مقام الرضا والتسليم، ومقام التكلم مقام الإدلال والانبساط ومن ثم استبد موسى بأمر النبي ﷺ بطلب التخفيف دون إبراهيم ﷺ، مع أن للنبي ﷺ من الاختصاص بإبراهيم أزيد مما له من موسى لمقام الأبوة ورفع المنزلة والاتباع في الملة، وقال غيره: الحكمة في ذلك ما أشار إليه موسى ﷺ في نفس الحديث من سبقه إلى معالجة

(١) «الرحيق المختوم» (١٦٧، ١٦٨).

قومه في هذه العبادة بعينها، وأنهم خالفوه وعصوه، وفيه أن الجنة والنار قد خلقتا، لقوله في بعض طرقه التي بينها «عرضت على الجنة والنار» وقد تقدم البحث في بدء الخلق، وفيها استحباب الإكثار من سؤال الله قال: وتكثير الشفاعة عنده لما وقع منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إجابته مشورة موسى في سؤال التخفيف، وفيه فضيلة الاستحياء وبذل النصيحة لمن يحتاج إليها وإن لم يستشر الناصح في ذلك^(١).

٥- قال محمد سعيد رمضان، وفي اختيار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللبن على الخمر حينما قدمها له جبريل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ دلالة رمزية على أن الإسلام هو دين الفطرة، أي الدين الذي ينسجم في عقيدته وأحكامه كلها مع ما تقتضيه نوازع الفطرة الإنسانية الأصلية، فليس في الإسلام شيء مما يتعارض والطبيعة الأصلية في الإنسان، ولو أن الفطرة كانت جسماً ذا طول وأبعاد لكان الدين الإسلامي الثوب المفصل على قدره، وهذا من أهم أسرار سعة انتشاره وسرعة تقبل الناس له إذ الإنسان مهما ترقى في مدارج الحضارة، وغمرته السعادة المادية، فإنه يظل نزاعاً إلى استجابة نوازع الفطرة لديه، ميالاً إلى الانعتاق عن ريقه التكاليف والتعقيدات البعيدة عن طبيعته، والإسلام هو النظام الوحيد الذي يستجيب لأعمق نوازع الفطرة البشرية^(٢).

٩- بيعة العقبة الأولى

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ثم إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقي عند العقبة في الموسم ستة نفر من الأنصار كلهم من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رئاب، فدعاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسلموا^(٣).

(١) «فتح الباري» (٧/٢٥٨).

(٢) «فقه السيرة» للبوطي (١٢٠، ١٢١).

(٣) ذكره ابن القيم في «زاد المعاد» (٣/٤٥)، ورواه ابن هشام عن ابن إسحاق في «السيرة» مع اختلاف في

اللفظ (٢/١٧٦، ١٧٧)، وقال محقق زاد المعاد: ورجاله ثقات وسنده حسن.

ثم رجعوا إلى المدينة فدعواهم إلى الإسلام، ففشا الإسلام فيها حتى لم يبق دار إلا وقد دخلها، فلما كان العام المقبل جاء منهم اثنا عشر رجلاً، الستة الأول خلا جابر بن عبد الله، ومنهم معاذ بن الحارث بن رفاعة أخو عمرو المتقدم، وذكوان بن عبد القيس، وقد أقام ذكوان بمكة حتى هاجر إلى المدينة فيقال أنه مهاجري أنصاري، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويمر بن مالك، هم اثنا عشر^(١).

واختلف في ألفاظ هذه البيعة فروى البخاري عن أبي إدريس عائذ الله بن عبد الله عن عبادة بن الصامت من الذين شهدوا بدرًا مع رسول الله ﷺ ومن أصحابه ليلة العقبة، أخبره أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تُسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه»^(٢).

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٤٥).

(٢) رواه البخاري (٨٣/ ١) والإيمان، ومسلم (٢٢٢/ ١٠) الحدود، والترمذي (٢١٨/ ٦) الحدود، والنسائي (١٤٨/ ٧) البيعة، وقد رجح الحافظ في الفتح أن هذه الصيغة لم تكن صيغة بيعة العقبة وإنما كانت بيعة أخرى بعد فتح مكة، وقد بايع عبادة البيعتين، ولما كانت بيعة العقبة من أجل ما يمتدح به فكان يذكرها إذا حدث تنويهاً بسابقته ﷺ.

قال الحافظ: والمبايعة المذكورة في حديث عبادة على الصيغة المذكورة لم تقع ليلة العقبة وإنما كان ليلة العقبة ما ذكر ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي أن النبي ﷺ قال لمن حضر من الأنصار: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فبايعوه على ذلك، وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه. وسيأتي في هذا الكتاب في كتاب الفتن وغيره من حديث عبادة أيضًا قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره» الحديث، وأصرح من ذلك في هذا المراد ما أخرجه أحمد والطبراني من وجه آخر عن عبادة أنه جرت له قصة مع أبي هريرة عند معاوية بالشام: فقال: يا أبا هريرة إنك لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن نقول بالحق لا نخاف في الله لومة لائم، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يشرب فنمنعه مما نمنع أنفسنا وأزواجنا وأبنائنا ولنا الجنة، فهذه بيعة رسول الله ﷺ التي بايعناه عليها.

قال ابن إسحاق: فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يُقرأهم القرآن ويُعلمهم الإسلام ويُفقههم في الدين، فكان يُسمى المقرئ بالمدينة: مصعب وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس أبي أمانة.

ومن أروع ما يروى وأحسن ما يُستفاد منه في الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ من هذا الداعية الشاب الذي كان من أترف شباب مكة، ولكنه سبق إلى الإسلام وتخرج على رسول الله ﷺ، واختاره ﷺ سفيراً له في المدينة يطيبها بالإسلام، ويعلمها القرآن، ويجهزها لهجرة النبي ﷺ ما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق قال: وحدثني عبيد الله بن معيقب وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد ابن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، وكان سعد ابن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن خاله أسعد بن زرارة فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر.

قالا على بئر يقال لها بئر مرق، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيداً قومها من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أباك انطلق إلى هذين الرجلين الذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانهما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً. قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟

=ثم قال: والذي يقوي أنها وقعت بعد فتح مكة، بعد أن نزلت الآية التي في الممتحنة وهي قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَا بَعْنَكَ﴾ [المتحنة: ١٢] ونزول هذه الآية متأخر بعد قصة الحديبية بلا خلاف. باختصار من الفتح (١/ ٨٤، ٨٥) السلفية.

اعتزلانا إن كنت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره.

قال: أنصفت. ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشرافه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله!! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا: نغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديبهم، فلما نظر إليه سعد ابن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: قد كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتهما فقالوا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، قال: فقام سعد مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً ثم خرج إليهما فلما رأهما سعد مطمئنين عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتتاً ثم قال لأسعد بن زرارة، يا أبا أمامة: لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في ديارنا بما نكره.

وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب جاءك والله سيد من وراءه قومه إن يتبعك لا يتخلص منك منهم اثنان، قال فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره.

قال سعد: أنصفت ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن، قالوا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشرافه وتسهله، ثم قال لهما كيف

تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين، قالوا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حرته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن خضير.

فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف أمرني فيكم؟ قالوا: سدينا وأفضلنا رأياً، وإيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالوا: فوالله ما أمسى في دار بني الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف^(١).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - في هذا الباب وما ختمناه به من قصة مصعب بن عمير في المدينة بيان فضل مصعب وكيف اختاره الرسول ﷺ لفتح قلوب وديار أهل المدينة الإسلامية، وكيف نجح ﷺ أيما نجاح في هذه المهمة وظهرت آثار الدعوة المباركة في عام واحد، حتى لم يبق بيت إلا ودخله إسلام، إما آمن بعضه أو آمن كله إلا ما ذكره ابن إسحاق، وهذا يدل على فضل الصحابة عموماً، وفضل هذا الداعية المبارك الذي عرف كيف تكون الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، وكذلك فضل أسعد بن زرارة، وكيف كان له نعم الناصر والناصح واسمعه وهو يقول لمصعب: «هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه»، فكان من جزاء الصدق وبركته أن آمن بدعوته رجلان كانا سبباً في إسلام قومهما، وكان جميع ذلك في ميزان مصعب وأسعد بن زرارة ﷺ، وقد قال النبي ﷺ: «لئن

(١) «الروض الأنف» مع «سيرة ابن هشام» (٢/١٨٦، ١٨٧).

يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»^(١). وقال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»^(٢).

٢- في هذا الباب كذلك فضل الأنصار وكيف أن الله عزَّ وجلَّ جبلهم على الصدق والشهامة والمروءة، وكيف هياً أنفسهم لقبول هذا الدين ومناصرة سيد الأولين والآخرين، وفيه فضل سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن لوفاته، وأسيد بن حضير الذي نزلت الملائكة تسمع لقراءته وقال له النبي ﷺ: «لو قرأت لأصبحت ينظر إليها الناس ما تستر منهم»^(٣).

٣- في هذا الباب كذلك بيان ثمرات التربية الصحيحة، وكيف أن التربية قد تستغرق زمناً طويلاً من أجل بناء من يحمل الدعوة وتبليغها، ولكنها بعد ذلك تثمر الثمرات الجليلة الكثيرة في زمن يسير، فهذا مُصعب بن عمير الذي ربه النبي ﷺ على الإسلام وسقاه القرآن، كيف فتح الله عزَّ وجلَّ به، وأنى أتخيل أحياناً رجلاً من الصحابة الكرام يبعث في زماننا هذا كيف ينفع الله به، وكيف يفتح على يديه، وإن شئت قلت أحد علماء السلف الذين جمعوا بين العلم والعمل كشيخ الإسلام ابن تيمية أو تلميذه ابن القيم، لو بعث في زماننا وقام بالدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ فيني على يقين من أن النفع الذي يأتي منه الخير الذي يُساق على يديه من فتح البلاد وقلوب العباد بالإسلام يكون أكثر من آلاف من الدعاة المعاصرين الذين يقضون أعمارهم في الدعوة، والفرق بيننا وبين هؤلاء الأعلام هو العلم والتربية، والعلم إن كان لله عزَّ وجلَّ فهو أيضاً تربية، فظهرت بذلك بركة التربية التي يظن كثير من أصحاب الاتجاهات الإسلامية المعاصرة أنها ليست بذات قيمة، وأن إنفاق الناس أعمارهم فيها ليس فيه فائدة ولا عائدة، وأنها من باب تضييع

(١) رواه البخاري (٨٧/٧) فضائل الصحابة، ومسلم (١٧٨/١٥) فضائل الصحابة، ورواه أبو داود بلفظ:

«والله لأن يهدي بهداك رجل واحد خير لك من حمر النعم» [٣٦٤٤] العلم.

(٢) رواه مسلم (٢٢٧/١٦) العلم.

(٣) رواه مسلم (٨٣، ٨٢/٦) صلاة المسافرين، والبخاري تعليقاً مجزوماً به في فضائل القرآن.

الزمان، وأن الإسلام يمكن أن يقوم بأناس ما تربوا بالعقيدة الصحيحة وقيام الليل، وصيام النهار، كما تربي الصحابة الكرام، وإنما أطلنا النفس في هذه الفائدة لأنها مقصود الكتاب ولُب الخطاب، فنسأل الله أن يوفقنا لسلوك سبيل الصحابة الكرام، وأن يعز الله تعالى بنا الدين كما أعزه بالسابقين الأولين، وأن يجمعنا بهم مع سيد الأولين والآخرين يوم يقوم الناس لرب العالمين.

٤- قال الدكتور محمد سعيد رمضان: إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر المتواصل في سبيل الله وحده هي الثمن والطريق إلى نشأة مد إسلامي زاخر عظيم، ينتشر في شرق العالم وغربه، تتساقط أمامه قوة الروم، وتتهاوى بين يديه عظمة فارس، وتذوب من حوله قيم النظم والحضارات.

ثمن من الجهاد والصبر والتعب وخوض الشدائد، كان من السهل جداً على الله عزَّ وَجَلَّ أن يُقيم دعائم المجتمع الإسلامي بدونه، ولكن تلك هي سنة الله في عباده، أراد أن يحقق فيهم التعبد اختياراً كما تحققت فيهم صفة العبودية له إجباراً، ولا يتحقق التعبد بدون بذل الجهد، ولا يمحص الصادق من الكذب بدون عذاب أو استشهاد، وليس من العدل أن يكسب الإنسان الغنم دون أن يبذل على ذلك شيئاً من الغرم. من أجل ذلك كلف الله الإنسان بأمرين اثنين:

١- إقامة شرعة الإسلام ومجتمعه.

٢- السير في ذلك في طريق شائكة مجهددة غير معبدة^(١).

قلت والدليل عليه مع أحداث السيرة وكذلك سيرة جميع الرسل قوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّكُمْ بِبَعْضِكُمْ بَعْضٌ وَالَّذِينَ قَبِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾^(٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ^(٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ^(٦) [مُحَمَّدًا: ٤-٦].

(١) «فقه السيرة» (١٢٤، ١٢٥) باختصار.

١٠- بيعة العقبة الثانية

روى ابن إسحاق وعنه أحمد وغيره من حديث كعب بن مالك في قصة العقبة الثانية قال: «.. فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومنا امرأتان من نساءنا نسيبة بنت كعب، أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسما بنت عمرو بن عدى بن نابي إحدى نساء بني سلمه، وهى أم منيع، قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج قال وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها: إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورتناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حباً وإن قاطعوها -يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم والدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتكم وأسلم من سالمتم»^(١).

(١) قال ابن هشام: ويقال الهدم الهدم: أي ذمتي وذمتكم وحرمتي وحرمتكم، سيرة ابن هشام مع «الروض الأنف» (٣/١٨٩).

قال كعب : وقد قال رسول الله ﷺ أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. قال كعب: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ثم بايع بعده القوم.

فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباب (١) هل لكم في مذمم والصبابة (٢) معه قد اجتمعوا على حربكم، قال: فقال رسول الله ﷺ: «هذا أذب (٣) العقبة، هذا أذب العقبة»، ويقال: ابن أذب استمع أي عدو الله أما والله لأفرغن لك. قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «ارفضوا إلى حالكم» قال: فقال له العباس بن عباد بن فضالة والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل مني غداً بأسيا فنا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم» قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فمننا عليها حتى أصبحنا. فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يملفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه. قال: وقد صدقوا، لم يعلموه، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان جديدان قال: فقلت له كلمه كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعل هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث فخلعها من رجله ثم

(١) الجباب: المنازل.

(٢) الصبابة: أي الذين خرجوا عن دين آبائهم.

(٣) أذب العقبة: شيطانها، والأذب: القصير الماكر والبخيل الخبيث.

رمى بها إلي وقال: والله لتتعلنهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت والله الفتى فأردد إليه نعليه. قال: قلت: لا والله لا أردهما فأل والله صالح لئن صدق الفأل لأسلبنه^(١).

الضوائد والآثار الإيمانية:

١ - قال الغزالي: تلکم بيعة العقبة وما أبرم فيها من موثيق وما دار فيها من محاورات، إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت في كل كلمة قيلت، وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملئ العهود، كلا فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم، والمغانم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة.

فقد جاءوا من يثرب مؤمنين أشد الإيمان، وملبين داعي التضحية مع أن معرفتهم بالنبي ﷺ كانت لمحة عابرة غبرت عليها الأيام، وكان الظن بها أن تزول لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة والثقة، إنه القرآن، لئن كان الأنصار قبل بيعته الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لماماً، إن الوحي المشع من السماء أضاء لهم الطريق وأوضح الغاية.

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن، سال على السنة الحفاظ وتداولته صحائف السفارة الكرام البررة، والقرآن النازل بمكة صورَّ جزء الآخرة رأى العين فتوشك أن تمد يدك تقطف من أثمار الجنة، ويستطيع الأعرابي المتعشق للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضان الجزيرة إلى أنهار النعيم، والرحيق المختوم.

وحكى القرآن أخبار الأولين كيف أخلص المؤمنون فنجوا مع رسلهم، وكيف طغى الكفار وأسكرهم الإمهال فتعتنوا وتجبروا، ثم حلَّ العدل الإلهي فذهب الظالمون بدداً، وتركوا وراءهم دنيا مدبرة ودوراً خربة.

(١) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق (١٨٧/٢، ١٩٢) بأطول من هذا وعنه أحمد في «المسند» (٣/٤٦٠، ٤٦٣)، والطبراني (٩١، ٨٧/١٩) والحديث بطوله في «مجمع الزوائد» (٤٢/٦، ٤٦) وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع وقال الألباني في تحقيق «فقه السيرة»: وهذا سند صحيح وصححه ابن حبان كما في «الفتح» (٧/٤٧٥).

فَأَدْبَرُوا وَوَجَّهُوا الْأَرْضَ تَلْعَنُهُمْ كَبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مُنْهَزِمٍ

الإيمان بالله والحب فيه والأخوة على دينه والتناصر باسمه، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها، يتدافع ليعلم أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ويمنعونهم بأرواحهم فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء، إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه وأرهبوا المسلمين حتى شغلوهم بأنفسهم فناموا نومة المجرم الذي اقترف الإثم وأمن القصاص.

حَسَنَتْ ظَنُّكَ بِالْأَيَّامِ إِذَا حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَأَلْتِكَ اللَّيَالِي فَاعْتَرَّتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدْرُ

أجل ففي الليلة تحالف جند الحق ان يقسما ظهر الوثنية، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجلها إلى الفناء^(١).

٢- لعل أصحاب الفكر المتسرع الذين يظنون أن الإسلام يمكن أن يُمكن بضربة خاطفة يعتبرون بما حدث في هذه البيعة، وكيف أن الأنصار وهم أهل حرب ودراية، وقد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل الوادي فيقتلونهم، فنهاهم ﷺ عن ذلك وقال: إني لم أؤمر بذلك، فتعجل الشار قد يضع الجهد المبذول، ولا تؤتي الحركة الإسلامية ثمارها، وتكون النتيجة خسارة الأفراد الموجودين وضياح دعوتهم في مقابل مصلحة متوهمة وهذا شاهد لقول النبي ﷺ لخباب: «ولكنكم تستعجلون»^(٢).

٣- قال الأستاذ محمد سعيد رمضان: يتجلى لدى التأمل فيما سردناه من كيفية بدء إسلام الأنصار، أن الله عزَّ وجلَّ قد مهد حياة المدينة وبيئتها لقبول الدعوة الإسلامية، وأنه كان في صدر أهل المدينة تهيؤ نفسي لقبول هذا الدين.

(١) «فقه السيرة» (١٦١، ١٦٣) باختصار.

(٢) تقدم تخرجه.

لقد كان سكان المدينة المنورة خَلِيطًا من سكانها الأصليين وهم العرب المشركون واليهود المهاجرين إليها من أطراف الجزيرة، وكان المشركون ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين: إحداهما الأوس، والثانية الخزرج. وكان اليهود ثلاث قبائل: بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع. ولقد احتال اليهود طويلاً كعادتهم حتى زرعا الضغائن بين قبيلتي الأوس والخزرج، فراح العرب يأكل بعضهم بعضاً في حروب طاحنة متلاحقة، وفي غمار هذه الخصومة الطويلة حالفت كل من الأوس والخزرج قبيلة من اليهود، فحالف الأوس بني قريظة، وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع، وكان آخر ما بينهم من المواقع موقعة بُعث، وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة، وكان يوماً عظيماً مات فيه أكثر رؤسائهم، في أثناء ذلك كان كلما وقع شئ بين العرب واليهود، هدد اليهود في أثناء ذلك بأن نبياً قد آن أو انبعثته، وأنهم سيكونون من أتباعه ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم.

فهذه الظروف جعلت لدى أهل المدينة تطلعاً إلى هذا الدين، وعلقت منهم أملاً قوياً به، عسى أن تتوحد بفضلله صفوفهم ويعود فيلتئم شملهم، وتذوب وتمحى أسباب الشقاق مما بينهم. ولقد كان هذا مما صنعه الله لرسوله كما يقول ابن القيم في «زاد المعاد» حتى يُمهّد بذلك لهجرته إلى المدينة، حيث اقتضت رحمة الله أن تكون هي المنطلق للمد إلى سلامي في أرجاء الأرض كلها^(١).

٤- قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوههم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم وبين هارب في البلاد فراراً منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة وفي كل وجه، فلما عنت قريش على الله عزَّ وَجَلَّ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة،

(١) «فقه السيرة» (١٢٦، ١٢٧) باختصار.

وكذبوا نبيه ﷺ، وعذبوا ونفوا من عبده وحده وصدق نبيه واعتصم بدينه،
أذن الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم،
فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم فيما
بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ
بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ
يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ
يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾
الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ
الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ [الفتح: ٣٩-٤١]، أي إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا، ولم
يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، يعني النبي ﷺ وأصحابه - رضي
الله عنهم أجمعين - (١).



(١) «سيرة ابن هشام» مع «الروض الأنف» (٢/ ٢١١).